رواية

أبناء الديمقراطية



ياسر شعبان

أبناء الديمقراطية

رواية

ياسر شعبان

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

إهداء

إلى صديقي المبدع و المترجم الجميل

سيد عبد الخالق

قبل الكتابة :

بعد أيام من انتهاء هجمة قوات التحالف على العـراق بمزاعم مختلفة ، و خلال إحدى جولاتي بين باعـة الكتـب القديمة ، اشتريت مجموعة من الكتب بمبلغ أظنـه أرضـى البائع فجاملني بمجموعة من كتب كهدية ، و ضـعها فـي كيس من البلاستيك الأسود .

و بعد أن وصلت إلى البيت أخرجـت الكتـب التـي اشتريتها و قمت بتصنيفها لأضع بعضـها فـي المكتبـة و البعض الآخر أضعه في متناول يدي لأقرأه .

و نسيت أمر الكيس البلاستيكي الأسود . و مرت أسابيع و هذا الكيس ملقى إلى جوار المكتب ، حتى سألتني زوجتي هل تريد هذا الكيس ، فسألتها عما يحتويه . و عندما فتحتـه ابتسمت ثم ناولته لي و هي تقول : كتب كالعادة ..!!

أخذت الكيس و أخرجت ما بداخله من كتب ، و كانت جميعها بلا أغلفة ، كأن هناك من تعمد نزع أغلفتهـا .. و

كانت أوراقها صفراء متآكلة الحواف . تصفحتها تباعاً ، و إذا بعيني تقعان على هذه السطور على سبيل الإهداء :

باسم الذين كتب عليهم الموت لأنهـم جحـدوا مبـادئ الديمقراطية ..

باسم من قضى نحبه و باسم من ينتظر ..

باسم الدماء الزكية الطاهرة التي تخضبت بهـا رمـال الصحراء في آسيا و أفريقيا ..

باسم الدماء التي سفكها السفاحون فسالت أنهاراً ..

باسم الشعوب التي اندثرت صروح ماضيها و طواهـا الاستعمار في ردائه القاتم ، فحق على أهلها لعنة قبور الآباء و الأجداد ..

باسم يوم الوعيد المنتظر الذي تخشع فيه الأرض رهبة و تفتح السماء جميع أبوابها لتسـتقبل الملايـين مـن أرواح البشر ..

ذلك هو يوم حصاد الأرواح على يد أبناء الديمقراطية

و عندئذ قررت قراءة هذا الكتاب/ الرواية لأكتشف أنه بمثابة محاكاة ساخرة لواقعنا الراهن من هجمة غربية علـى العراق ، و تدخل في شئون الـدول و التلاعـب بمصـائر

الشعوب و خاط الدين بالسياسة و الكلام عـن الديمقراطيـة كأنها اكتشاف و استخدام المساجين و البلطجية كجنـود فـي الحروب و كرجال شرطة ي المظاهرات .

و فاجأني هذا المؤلـف (المجهـول بالنسـبة لـي) بإدراكه العميق للمفارقات الشائنة التي تتبدى ليس للمتأمل بل لكل شخص قادر على التساؤل .

و بعد النتهاء من قراءة هذا الكتاب / الرواية ، قـررت كتابة رواية بعنوان " أبناء الديمقراطية " ، متناصاً معها فـي الجانب التاريخي الساخر .

و كذلك قررت إهدائها إلى هذا المؤلف المدهش الـذي استطاع قبل عدة عقود أن يكتب مستشرفاً ما سنواجهه بكـل هذه المرارة و السخرية .

أيها المعلم

أهديك روايتي

التي هي امتداد لروايتك

و لك كل التقدير

ياسر

لست نبياً أو مرسلاً و لكنني مجرد إنسان مذنب يحمـل رسالة لا يعرف فحواها أو جدواها ..

وحكايتي تبدأ ليلة إعلان الحرب على العـراق " فعليـاً كان ذلك ليلة اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة في أمريكا ، و لكنني الآن أعتبر أن هذا الحادث كان تمهيداً لـيس فقـط لضرب أفغانستان بل لغزو العراق و اسـتعماره " . كانـت الشوارع شبه خالية ، فقـد احتشـد النـاس أمـام شاشـات التليفزيون وعلى وجوههم ذلك التعبير الـذي كثيـراً مـا صادفته و أطلقت عليه " انفعال المتعلقين بالأمل في الخلاص " .. (فعند اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة ظن النـاس ذلك انتصاراً ، و عندما بدأت الحرب على العـراق قـالوا ستكون فيتنام أخرى) ..

و تركت الجميع للجلوس شبه منـومين أمـام شاشـات التليفزيون ، و اتجهت إلى البحر حيث جلسـت علـى الرمال محدقاً .. فقط محدقاً ، و ظللت هكذا حتى أشـرقت الشمس ، فقررت التوجه إلى أقرب مقهى لأتنـاول طعـام الإفطار و أشرب شاياً ، و أدهشني أن رواد المقهى ما زالوا

يتحدثون عن اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة و الانتقـام الإلهي ونبوءة " نوستراداموس " و بداية النهاية للإمبرياليـة الأمريكية ... و الكلام ذاته ردده المذيعون و المحللون على شاشة التليفزيون . و سيطرت علـي رغبـة عارمـة فـي الاختلاء بنفسي لأكتب ، و لم أعرف لحظتها هل سـأكتب ، أو عن أي شيء سأكتب ، وكيف و أين ... فقـط سـيطرت علي تلك الرغبة التي تجعلنـي لا أفعـل أي شـيء سـوى الجلوس أمام الورق حتى لو اكتفيـت بالشـخبطة و رسـم الوجوه الطوطمية و الدوائر .

.. الكتابة .. طقسي التطهري عندما أشعر بالضعف ، بعدم القدرة على الفعل أو القول .. طقسي التطهري الـذي يبدأ بترديد هذه السطور :

رعب أكبر من هذا سوف يجيء

فانفجروا أو موتوا ....

طقسي التطهري الذي أجلد فيه نفسي .. أطأ الجمـر و أتابع انبجاس الدم من جروح خلفتها الأشواك التي أنزعهـا و أغرسها مرة بعد أخرى ..

طقس تطهري ، فأنا مذنب .. مجرد إنسان مذنب .. أشعر أنني أحمل رسالة لا أعرف فحواها أو جدواها ...

وحكايتي تبدأ ليلة اندلاع الحرب على العراق ، عندما كنت أتابع أخبار الحرب على الإنترنت " بوصفي كائناً معلوماتياً رقمياً " .. و إذا بإشارة من الكمبيوتر تنبهني إلى وصول رسالة إلكترونية إلى صندوق البريد الخاص بي ..

سيدي المحترم

أنا مواطن أمريكي من أصل عربي ، هاجر و الدي إلى أمريكا قبل نصف قرن حيث تزوج إنجليزية ، و كثيراً ما كان والدي يحكي لي عن طفولته على ضفاف أحد الأنهار العربية " لا أستطيع أن أتذكر اسمه الآن " ..

و بعد موت والدي وجدت هذه " الرواية " المكتوبة بخط اليد و باللغة العربية ، ولأن الورق كان قديماً للغاية و يكاد يتفتت ، قررت أن أكتبها على الكمبيوتر لكنني واجهت مشكلتين :

الأولى : عدم قدرتي على المتـ ـ ـابعة بالعـ ـ ـربية لجهلي باللغة و عدم امتلاكي لـ " لوحة مفاتيح " عربية ، و الثانية : خوفي أن يطلع عليها أحد لأنني لا أعرف فحواها أو جدواها .

و هكذا قررت أن أقوم بتصويرها " I decided to scan it" و إرسالها إلى بعض العناوين البريدية التي تحمل أسـماء عربية ..

و يعني ذلك أنها ليست مرسلة لك وحـدك ، و كـذلك أنني لا أعرف أحداً ممن ستصلهم هذه الرواية رغم احتمال وجود قريب لي بينهم ..

تحيتي و تقديري ..

و انتهت الرسالة ، و رغم أنني لم أهـتم بفحواهـا أو جدواها ، لم أحذفها كما أفعل عادة ، بل غامرت بفتح الملف المرفق به الرواية - حسب زعم هذا المرسل الغـامض - رغم ما قد يحمله ذلك من فيروسات قد تفسد جهاز الكمبيوتر

و تتسبب في فقداني لجزء من ذاكرتي المعلوماتية الرقميـة الكونية ..

لكنه الفضول ربما .. أو الشعور الغامض بأنني بحاجة إلى رسالة لا أعرف فحواها أو جـدواها ليتعمـق داخلـي الشعور بالذنب ...

ومنذ السطور الأولى شعرت أنني على وشك التـورط في كتابة أقرب إلى التعويذة ، فلقد بدأت هكذا :

باسم الذين كتب عليهم الموت لأنهـم جحـدوا مبـادئ الديمقراطية .

باسم من قضى نحبه و باسم من ينتظر ..

باسم الدماء الزكية الطاهرة التي تخضبت بهـا رمـال الصحراء في آسيا و أفريقيا ..

باسم الدماء التي سفكها السفاحون فسالت أنهاراً ..

باسم الشعوب التي اندثرت صروح ماضيها و طواهـا الاستعمار في ردائه القاتم ، فحق على أهلها لعنة قبور الآباء و الأجداد ..

باسم يوم الوعيد المنتظر الذي تخشع فيه الأرض رهبة و تفتح السماء جميع أبوابها لتستقبل الملايين من أرواح البشر ..

ذلك هو يوم حصاد الأرواح على يد أبناء الديمقراطية ...

باسم هؤلاء جميعاً أكتب عن رسل الديمقراطية " حاصدي الأرواح " .. أنا المذنب الهالك بسبب رسالة لا أعرف فحواها أو جدواها و رغم ذلك سأدونها ، ربما من أجل من هلكوا ولم يقرءوها أو هؤلاء الذين سيهلكون رغم قراءتها ..

و عندئذ قررت أن أرسل له مستفسراً ربما " عنه – عن الرواية – عن أبيه .." ، وضغطت على " reply" و كتبت :

صديقي

لا أعرف من أنت

لا أعرف هل أنت شخص حقيقي

أم جزء من الواقع الافتراضي الذي يحيط بنا ..
لا يهم ..
لكنني أشعر بعلاقة غامضة تربطني بما أرسلته
و لا أعرف - كالعادة –
هل أطلب منك مزيداً من التفاصيل ؟
هل أطلب منك أن ترسل إلي أية أوراق تخص والدك ؟
صديقي ..
هل تريد التواصل معي ولو عبر البريد الإلكتروني ؟
هل تريد أن نبتدع واقعاً افتراضياً خـاص بنـا ، نعيـد خلاله تشكيل مفردات الواقع و تبديل المقدرات والعبـث بالأحداث التاريخية .. ؟
في انتظار ردك ..
واسمح لي أن أطلع على رواية والدك " هل بمقـدورك ألا تسمح ؟ "
وإلى لقاء افتراضي ..

الفصل الأول

.. هبطت مدينة الإسكندرية ظهر اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٩٤٥، وكان نبأ استسلام ألمانيـا فـي الحـرب العالمية الثانية قد أعلن في اليوم السابق على هـذا التـاريخ وأذيع النبأ في كل مكان وكان له صداه في مدينة الإسكندرية . فقد وجدتها تموج بعشـرات الآلاف مـن جنـود الـدول المتحالفة . كانوا يسيرون في الطرقات على غيـر هـدى ، ينشدون بلغات مختلفة وبعضهم يرقص على نغـم الأكـف ، ويخيل لمن يراهم أنهم قد حصلوا على عفو بعد حكم قضـى بإعدامهم . ورأيت أن أختلي بنفسي ،فاتجهت إلى ركن قصي بأحد المقاهي حيث أطفأت النور لأجلس محدقاً فـي الظـلام لأجمع أطراف ما أرغب في كتابته تحت غلالـة الصـمت السوداء .

وفجأة تعكر صفو المكان ، فقد سمعت جلبة ووقع أقدام بداخل المقهى أعقبهما صياح ، فنظرت متلصصاً من خلـف ستار النافذة الداخلية فوجدت على مقربة مني شـرذمة مـن بحارة الأسطول الإنجليزي يهتفون احتفالاً بالنصر .. لتحيـا

الديمقراطية .. لتحيا الديمقراطية ، وبعد تكرار هذا الهتـاف انطلقوا ينشدون :

أيتها الديمقراطية

تراث الخلد يا تاج السنين

ورثنا المجد لسنا غاصبين

وحول العرش نهتف طائعين

جنوداً في السجل الخالدين

قطعنا البحر كنا ظافرين

وفى الأعناق أطواق اليمين

بطهر الاسم نعلوا الساجدين

و ويل للعصاة الجاحدين

واستمروا في ترتيل هذا النشيد مرات ثم نادى أحـدهم زميلاً له قائلاً :

أتذكر يا " ماكسويل " يوم أن كنا في بحار الجنوب منذ عامين و أمسكت بذلك السعف المضفر الذي التقطنـاه مـن على سطح الماء وأخذت تقهقه ضاحكاً وكلما سألك أحد منـا عن سر الضحك ، كنت تعود إليه مرة ثانية وقد أقسمت بعد

هذا إن نجوت من الحرب سالماً ستفضي إلينا بسر الضـحك وتقص علينا قصة " أبناء الديمقراطية " .

وحينما أجاب البحار المخاطب ، رأيتـه جالسـاً علـى منضدة وقد دلى ساقيه باسترخاء ، وأجاب قائلاً :

اغفروا لي هذا القسم فإنه يكشف عن سر لا أسـتطيع أن أبوح به ، وقد عاهدتكم في ذاك اليوم لأنني كنت قريبـاً من الموت الذي كنت أسمع نداءه صادراً من قاع المحيط في كل لحظة .

لكن البحارة أبـوا أن يسـتجيبوا لرجائـه و ارتفعـت أصواتهم تطالبه بالوفاء بما عاهد به .

فصاح في ضجر قائلاً :

إن الذي تطلبون سماعه مجهول لكم ، ولو أدركتم مدى خطورة كشف هذا السر لقبلتم رجائي مـرغمين . إن فـي إذاعته خطراً يهدد كيان الإمبراطوريـة فـي المسـتعمرات والدول التي استقلت منا بمعاهدات .

واستطرد قائلاً :

وقد أقسمنا نحن " آل ماكسويل " أن نحتفظ بهذا السر و إلا فنحن خائنون للوطن .

وعندما سمع زملاؤه هذا القول تهامسوا فيمـا بيـنهم لحظات ، ثم ركبوا رءوسهم واندفعوا في جنبـات المقهـى آمرين الرواد بمغادرته .

وتولى ثلاثة منهم أمر العاملين بالمقهى ، واقتادوهم إلى الخارج ، بينما هرول صاحب المقهى في كل مكان مجـادلاً دون أن يسمع لجداله أحد . ومضت لحظـات مـن الهـرج انتهت بطرد جميـع الرواد و الخدم ، ثم تتـابع البحـارة والتفـوا حول المنضـدة التـي جلـس إليهـا " ماكسويل " .

وظل صاحب المقهى خلف ظهـورهم دون أن يتوقـف عن الكلام والجدال وتسبب صوته في إخفاء الحديث القصير الذي دار بينهم ، ثم رأيت أيديهم تضع نقوداً في يد صـاحب المقهى الذي خرج بعد أن وعدوه بالحفاظ علـى محتويـات المقهى . وبعد خروجه التقط سمعي صرير الباب الخـارجي وهو يغلق من الداخل . ولقد كانت أمـامي فرصـة ذهبيـة لأهرب فيها أمام أبصارهم إلى الخـارج ولكننـي أطعـت الفضول وظللت حبيساً في الظلام وعندما تم لهم ما أرادوا ،

حملوا " ماكسويل " على الوفاء بوعده بأن يفضي لهم بهـذا السر الخطير .

وظل " ماكسويل " لبرهة يتلفت يمنة ويسرة ويصـوب بصره نحو السقف كمن انتوى ارتكاب جرم ويخشى عقابه ، ثم جذب ساقيه ووضعهما فوق المنضدة وبدأ قصته قائلاً :

- إنها قصة جدي الأكبر " ماكسويل " الذي عاش حتى نهاية القرن الثامن عشر ، فقد رواها لأبنائـه ودونهـا فـي مذكرات آلت إلي أخيراً ، وحفظتها عن ظهر قلـب . ولـم يترك ميراثاً للعائلة سوى هذه القصة وكنوز ما زالت مخبأة داخل جزر وأحراش مات دون الاهتداء لمكانها .

وكان يفخر بأنه ولد على ظهر مركب ، فـأبوه كـان صياداً ، وفي يوم حملت أمه الطعام لأبيه ؛ ففاجأها المخاض ليولد على ظهر المركب .

ورغم أنه كان وحيد أبويه ، فلقد وهبته الحياة قوة فشب يكافح أمواج البحر حتى تغلب عليها وحمل اسم " القرصـان الصامت " .

ولم يكن يحلم بأن يطوف البحار تحت علـم القرصـنة حتى وقع ذلك الحادث الذي غير مجرى حياته . فعندما بلـغ

الحادية و العشرين من عمره ، كان الفتـى المرمـوق بـين فتيات القرية . فقد كان وسيم الطلعة .. مفتول السـاعدين .. قوي البنية ، كان فخراً لأهل " قرية الصيادين " التي كانـت إحدى ضواحي " ليفربول" ثم امتدت إليها المدينة وابتلعتهـا من زمن . وكان لوقع خطواته في طرقات القرية رنين فـي آذان الفتيات ، ومع هذا أعرض عن حبهن عدا فتـاة يتيمـة الأم تدعى " ماري " وكانت تعيش مع أبيها صاحب المطعـم الوحيد بالقرية . ولقد أفاض جدي في مذكراته فـي وصـف جمالها ، وكيف أحبها حباً ثرثر به عجائز القرية وتهامس به الشباب وتغنى به الأطفال .

وظهر أحد الأيام اقتحم " جدي " باب المطعم وقد تلطخ وجهه بالدماء أثر مشاجرة على الساحل بسبب تناول علاقته بـ "ماري " بتهكم ، وتغلب خلالها على اثنين من أقرانه وقد علقت دماؤهما بوجهه ، وعندما رأته " مـاري " ظنـت أن مكروهاً أصابه فهتفت في خوف قائلة :

- عزيزي " ماكسويل " ...... ماذا أصابك ؟

كانت تسير حاملة الطعام لبعض الزبـائن ، فتعثـرت وانكفأت على وجهها ونظراتها مشدودة إلى وجـه جـدي ،

فتناثر ما في الأطباق من حساء ولحم على ثلاثة مـن رواد المطعم كـانوا يتنـاولون طعـامهم ، فـانفجروا غاضـبين ومترحمين على الفضيلة وشاركهم في هـذا بـاقي الـرواد وانصرفوا جميعاً تاركين طعامهم على الموائد . وهكذا خـلا المكان على جدي و " ماري " وأبيها وحاول جدي التـدخل لحمايتها من ضربات أبيها ودفعه بعيداً فارتطم جسده بأحـد المقاعد ونهض متثاقلاً وفى عينيه غضب حزين . وعندئـذ أدرك جدي أنه أخطأ فأخذ يتوسل إليه بأن يعفو عنه ، ولكن أباها صم أذنيه وأمره بمغادرة المطعم .

....

وسمعت صوت صفارة تفيد بوصول رسالة إلكترونيـة فتركت الرواية للاطلاع على هذه الرسالة وبـي رغبـة أن تكون من هذا الصديق الافتراضي ...

ولم تكن رسالة واحدة ، بل كانت مجمـــوعة مـن الرسائل تحمل موضـوعاً واحـداً ، وهـــو (الحملـة العالمية ضد الحرب " الأنجلو أمريكية " علـى العـراق) ، وهي عبارة عن دعوة للانضمام إلى هذه الحملـة بـالتوقيع بداية على أحد البيانات ثم المسـاهمة بالكتابـة أو بتنظـيم

اللقاءات والمظاهرات والمشاركة بما يساهم في فضح الأهداف الفعلية للحرب على العراق ، بعيداً عن المزاعم بوجود أسلحة دمار شامل أو بتورط النظام العراقي مع الجماعات الإرهابية خاصة تنظيم " القاعدة " أو حتى الترويج لدعاوى الإصلاح ونشر الديمقراطية في المنطقة العربية .

وقعت دون تردد ، ودهشت عندما وجدت أن توقيعي جاء بعد أكثر من نصف مليون توقيع وأحزنني أن المساهمة العربية لم تتجاوز الألف توقيع .. حتى في التظاهرات الافتراضية نحن متخاذلون وكأن الأمر لا يخصنا وكأننا لسنا مستهدفين ...!!

ووجدت داخل الرسالة مجموعة من الروابط " links " التي قادتني إلى مواقع مناهضة للعولمة والإمبريالية والنظام العالمي الجديد والحرب الأنجلو-أمريكية ، وداخل تلك المواقع وجدت روابط أخرى قادتني إلى مواقع أخرى عن الإسلام وحوار الأديان والحضارات وحقوق الإنسان وحرية التعبير وحقوق الأقليات ..

مواقع من داخل مواقع ، نشرات وبرامج ومشروعات وتمويل ، مواقف ومواقف مضادة ..... واقع افتراضي

مذهل ، لكن المثير للدهشة والغضب أننا فـي هـذا الواقـع الافتراضي نقتات على الفتات رغم أننا مستهدفون ....!!

....

وظل المطعم مغلقاً لخمسة عشر يوماً ، خلالها حبست " ماري " داخل حجرة لا نوافذ لها حتى لا ترى حبيبها . وبعد فترة قصيرة باع أبوها المطعم بثمن بخس ورحل بها تحـت جنح الظلام إلى " ليفربول " . وعندما علم جدي بالخبر قطع المسافة عدواً حتى وصل إلى الميناء فوجدهما قـد اسـتقلا سفينة أبحرت إلى أمريكا الشمالية قبل وصوله بساعات .

ومضى عليه عام أدمن خلاله شرب الخمر ، فلقد فارقته حبيبته ثم توفى والده وبعدها باع المركب التي ورثهـا عـن أبيه . حتى القرية ضاقت به فقد كـان الأطفـال يطاردونـه مرددين أغنيات الحب و قد استبدلوا باسميهما أسماء العشاق التي خلدتهم مثل تلك الأغنيات .

وكان يقضى معظم أوقاته متنقلاً بين حانات " ليفربول " ينتظر أخبار "ماري " وقلبه يحدثه بأنها ستفي بالوعد الـذي قطعته على نفسها . وصدق حدسه ، فلقد جاءته منها رسـالة

تخبره بأنها تعيش مع أبيها في " بوسطن " وتطلـب منـه الحضور فقد ساءت صحتها بعد رحيلها . وأخبرته أن أباهـا قد وافق على زواجها منه وتأكيداً لذلك وقـع أبوهـا علـى الرسالة وكتب بخط يده :

- ابني العزيز .. صفحت عنـك .أرجـو أن تحضـر سريعاً .

ووجـد " ماكسويل " بعض المال مرفقـاً بالرسـالة وملفوفاً في ورقة مكتوب عليها " نفقة السفر " . و فوق أول سفينة سافر "جدي " في أول رحلة يعبر فيها المحيط . وظل طوال الرحلة صامتاً ومحدقاً في خط الأفق ، بينما روحه لم تتوقف عن مناجاة حبيبته .

وفي منتصف الرحلة اعترضتهم " سفينة قراصـنة " ، وعن هذا الحادث قال في مذكراته :

" في الليلة الرابعة عشر بعد رحيلنا من ليفربول وكـان الظلام يكتنف المحيط ، فوجئت بارتطام سفينتنا بجسم صلب اعتقدت بأنه جبل من الثلج ، لكن جرس الخطر أخـذ يـدق وارتفع صوت البحارة يردد كلمـة واحـدة " القراصـنة .. القراصنة ". وإذا بثلاثة بحارة يصعدون على ظهر السـفينة

وقد حمل كل منهم في يديه أسلحة بيضاء و ألقى إلـي بـ ـ "سيف" . وحتى هذه اللحظة لـم أكـن مخطط ـاً للحـرب ، وتلاصقت السفينتان فقاتلت قتال من جـن و قضـيت علـى ثمانية من القراصنة وأصبت بجرح فـي كتفـي . وتشـجع الملاحون وبعض المسافرين الذين انضموا إليهم فقاتلوا بشدة ، ثم فوجئت بشخص يقفز فوق كتفي و يهوي بي من علـى ظهر السفينة إلى الماء ، وكان منافسي على كأس الحياة قوياً يجيد السباحة فاستمر النضال على الفوز بهذه الكـأس فتـرة طال أمدها و حينما افترق عني في الطريق إلى قاع المحيط بحثت عن السفينتين فلم أجد لهما أثراً .

وأخذت أسبح على غير هدى مدة من الزمن لـم أعلـم مداها و إذا بصوت يلتقطه سمعي قادماً مـن مكـان بعيـد فسبحت نحو مصدره وكلما اقتربت منه كان الصوت يعلـو منادياً بنطق إسباني " فرانشيسكو .. فرانشيسكو .." وحينئـذ أدركت بأن سفينة القراصنة على مقربة منـي وأن غريمـي الذي ابتلعه المحيط لم يكن قرصاناً أجيراً على ظهر السـفينة ولذلك ظلت تبحث عنه . وقد أخذ المنادي يهتف بهذا الاسـم وطافت السفينة حولي عدة مرات ثم سمعت ارتطـام جسـم

بالماء وتلاه آخر و ثالث ورأيت ثلاثة أشـخاص يغـادرون السفينة وبيد كل منهم مصباح وقد هبط كل منهم في زورق و سارت الزوارق الثلاث كما تبينتها من نور المصـباح فـي اتجاهات مختلفة وقد وقف حامل المصباح في مقدمـة كـل زورق منادياً فرانشيسكو .. فرانشيسكو . ولقـد أدركـت أن بكل زورق شخصاً آخر كان يقوم بالتجديف .

و ما إن رأيت ذلك دبرت أمراً وسـبحت بعيـداً عـن السفينة بدون صوت واقترب مني أحد الزوارق فسبحت تحت الماء على عمق لا يترك أثراً على صفحة الماء يظهره نور المصباح وقدرت مسافة يمر فيها الزورق فوق مني ولبسـت ثوب اللعب الذي أرتديه مع شباب القرية حينما أستولي على زورق أحدهم و أدعه يسبح خلفي وقد تم الأمر وكأني أعبث مع أصدقائي غير مدرك بأني ألعب لعبة خطرة ولكنها كانت تساوي حياتي . فدفعت الزورق من جانبه إلى أعلى فقذف ما في جوفه إلى الماء وبنفس السرعة أعدته إلى وضعه قبل أن ينقلب ثم دفعته إلى الأمام بقوة وقفزت فيه من الخلف وكـان به مجداف فجدفت مبتعداً به وارتفع صوت القرصانين مـن

خلفي يصيح أحدهما بالفرنسية والثاني بلغة أسبانية وقد جـدا في السباحة خلفي ولكني كنت بعيداً عنهما .

وعندما أطلـقت سفينة القراصنة مشـاعل مـن فـوق ظهرها كي تنير سطح الماء بحثاً عني ، كنت أرى ومـيض الشعاع وأنا مندفع بالزورق داخل حلقة الظلام وظل الأمـر مدة ثم انطبق الظلام من كل جانب وكـأني الوحيـد بهـذا المحيط وحينئذ شعرت بالوهن فقد كان بكتفي اليسرى جـرح لم أشعر بألمه سوى في اللحظة التي تحققت فيها من نجاتي ، فتمددت في الزورق وغلبني النوم وتركت مصيري معلقاً بيد الأقدار .

واستيقظت في ظهر اليوم التالي على يد تلمس رأسـي وفتحت عيني بفزع فوجدت شخصاً يتفـرس فـي وجهـي وسألني عن اسمي و وطني فأجبته ، وطلب مني أن أنهض وحينما رفعت رأسي رأيت سفينة تحمل العلـم الإنجليـزي وبجوار هذا الشخص اثنان آخران وقد ربط زورقـي إلـى زورقهم وصعدت إلى السفينة وجذب زورقي إلى سـطحها . وكانت سفينة بضائع، واستجوبني قبطانها ولكنه لم يصـدق روايتي وحجته في هذا أن سفن القراصنة لم تكن ترتاد هـذا

المكان إلا إذا كانت ضالة في البحار أو مطاردة من وحدات الأسطول .

....

صفارة أخرى – رسالة أخرى – متنفس افتراضي آخر لطاقة الغضب والعجز والضحك والشجن والنسيان .. واقـع افتراضي يجعلك جزءاً افتراضياً من عالم كنت تتمناه وتشير إليه بـ ـ ـ ـ " هناك " .

رسالة جديدة من موقع يحمل اسماً ملفتاً " المفيد للباحث عن مزيد : كيف تحمل لقـب إرهـابي " . و دون تفكيـر ضغطت على الرابطة الخاصة بهذا الموقع لأجد نفسي أمام عشرات الموضوعات و مررت على عناوينها سريعاً قبل أن أختـ ـ ـ ـ ـار مقالاً يحمل هذا العنـ ـ ـ ـوان " ملهـاة الألفية الثالثة " :

هذه هي المشكلة .. أمريكا في حالة حرب ضد أناس لا تعرفهم ، لأنهم لا يظهرون كثيراً على شاشة التليفزيـون . وقبل أن تتعرف بدقة أو حتى تبدأ في تفهم طبيعة عـدوها ، تعجلت الحكومة الأمريكية ، بضغط من الهياج الجماهيري و البلاغة الخطابية المؤثرة ، وقامت بالدعوة إلى تحريك جيشها

وقواتها الجوية والبحرية ووسائل الإعلام ودفعت بهـا إلـى المعركة .

وتكمن المشكلة أنه بمجرد ذهاب أمريكا إلى الحرب لن تستطيع الرجوع دون محاربة أحد . وإذا لم تجد عـدوها ، سوف تصنع عدواً لترضي الجماهير الغاضبة عنـد العـودة للوطن . وبمجرد أن تبدأ الحرب ، ستكسب قوة دافعة ومنطقاً و عدالة خاصة بها ، لدرجة أننا لن نذكر لأجل ماذا أعلنـت الحرب في البداية .

....

كرة الثلج – نيران الحقد المقدسة – أعـداء الحريـة والديمقراطية – الإرهابيون .. كلمات فـي أروع حـالات تجسدها تظل افتراضية و تصبح مصدراً لإثارة السـخرية و التهكم عند استخدامها بثقة مفرطة للإشارة إلى شيء أو إلـى مفهوم أو آخر غير واضح المعالم .

قمت بتمرير الرسالة إلى صديقي الافتراضي ، ومـا إن فعلت ذلك حتى شعرت بالغباء فهو كمـا جـ ـ ـاء فـي رسالته لا يعرف العربية وكذلك لم يكلف نفسه عنـاء الـرد على رسالتي السابقة .

..ـ.........

وبعد ذلك تم تسليم جدي " ماكسويل " إلى السـلطات ، وبعد التحقيق معه تم الإفراج عنه . و بعد شـهور معـدودة كان اسمه على لسان كل فرد سمع بقصة نجاة السفينة التـي استقلها من " ليفربول " بفضل شجاعته ، وقد بالغ القبطان في وصف تقريره بأن جدي قضى بسيفه علـى عشـرين مـن القراصنة وقد ألحق بهم الهزيمة ففروا بسفينتهم ثم مات ميتة الأبطال بعد أن قذف به الأعداء إلى اليم .

لكنه لم يمت ، وهكذا تم استدعاؤه ليكون جنـدياً فـي الأسطول ، لكن الملك أنعم عليه ومنحه رتبة ضابط البحرية ، وهكذا أصبح جـدي الأكبـر ضـابطاً فـي الأسطـول الإنجليزي .

ولم ينس " ماري " وطلب منحه إجازة يذهب فيها إلى "بوسطن" حتى يتسنى له عقد قرانه عليها . وبعـد صـعاب أجيب إلى طلبه وسافر إلى " بوسطن" وبحث عن عنوانهـا الذي ذكرته ، فسأل عنه أول شخص صادفه وكانت دهشـته بالغة حين سأله ذلك الشخص إذا كان يعني بهـذا العنـوان المنزل الذي كانت تقيم فيه "ماري" حبيبـة " ماكسـويل" ،

وعقدت الدهشة لسان جدي فسأله عن سر شهرتها . فأجابـه بأن الشارع الذي كانت تقيم به سمي باسمها تخليداً لذاكرها ، و أن الرصيف الذي رست عليه السفينة التي أنقذها حبيبهـا أطلق عليه " رصيف ماكسويل " ، وصنعت له تمثالاً ما زال في مدخل هذا الرصيف .

و أخبره أيضاُ بأن الصدمة كانت قاسية عليها فلم تحتمل خبر وفاته ، فتوفيت بعد شهر من بلوغها نبأ استشهاده . أما أبوها فقد عرض عليه أصحاب السفينة التي مات مدافعاً عنها ، عرضوا عليه وظيفة بالشركة في " بوسطن " لكنه رفض و هاجر إلى الغرب .

وأخذ هذا الرجل يسأل جدي عن حقيقة الأنبـاء التـي وردت من إنجلترا بأن"ماكسويل" ما زال على قيد الحياة وأنه أصبح ضابطاً في الأسطول ، ثم أخذ يدقق النظر في وجهـه منادياً المارة :

- إنـه البطل " ماكسويل " .. أقسم أنه هو .. نفـس الوجه الذي وصفته "ماري" للمثال .

ويقول جدي في مذكراته :

لم أر وجه أحد ممن كانوا يعانقونني أو يلتفون حولي ، وجه واحد لم يفارق بصري هو وجه "ماري" يوم أن دخلـت المطعم لآخر مرة وقد أفلتت زفرات الحب لسانها فهتفت في جزع على الملأ قائلةً :

- عزيزي "ماكسويل" ، وعيناها عالقتان بـي وأبوهـا يصفعها بكلتا يديه .

وحملت نفسي وزر ما أصابها ، فقد كنت السـبب فـي تعاستها ثم جاء القرصان وقضى على حياتها . لقـد خـاب أملي في الحياة فقد تصورتها خلال الرحلة وأنا متنكـر فـي شارب طويل ودار بيني وبينها حوار أخفيـت فيـه معـالم صوتي :

- هل أنت الفتاة التي تدعى " ماري " ؟

- نعم يا سيدي .

- هل تعرفين شخصاً يدعى "ماكسويل" ؟

- نعم .. نعم .. إنه حبيبي .

- أتحبين هذا الصعلوك .. لقد سرق تاج الملكة وهرب به من إنجلترا وجاء ليهديه لك ، وقد جئت لأقبض عليك .

- وأين هو الآن ؟

- إنه أمامك يا "ماري" .

ولطالما رددت هذا الحوار على ظهـر السـفينة آلاف المرات بيني وبين نفسي ، ولما لم أجد من يحاورني ضاقت بي الأرض ، ولو أنى خيرت في هذه اللحظة بـين عـرش إنجلترا وبين روح هذا القرصان اللعين لاخترت أن أزهـق روحه و أعدم شنقاً .

وهكذا بنى جدي مستقبله على كـأس يشـربها مـن دم القرصان . وجاهد رجال الشرطة في تفريق هذه الجمـوع الحاشدة التي أحاطت به ، فقد عطل الناس أعمالهم وهرعوا من ديارهم ومتاجرهم ليروا البطل المغوار الذي ظـل فـي مكانه مسمر القدمين . ثم سأل عن قبرهـا ، فـأخبروه أنـه خارج المدينة و أحضروا له عربة لكنه رفـض ركوبهـا و سار على قدميه وسط هذا الموكب . وعن ذلك الموقف قـال في مذكراته :

كان يخيل إلي بأنني ميت و أن هذه الجمـوع جـاءت تشيعني إلى مقري الأخير.

و وصل القبر بعد ساعتين من السير ، ولم ير بنيانه فقد وضع الأهالي عليه هرماً من الزهور . وعند القبر صـلى و

أقسم بأنه سينتقم لها من هذا القرصان أينما كان على ظهـر البحار .

....

وهنا قررت أن أتدخل في هذا النص ، لأن موقف هـذا الـ "ماكسويل" غريب ، فلقد ابتدع لنفسه عدواً يفـرغ فيـه غضبه على اندفاعه الأحمق الذي تسـبب فـي قـرار الأب بإغلاق المطعم ومغادرة إنجلترا كلها ومعه ابنته "مـاري" ، وغضبه كذلك من الموقـف المتعنـت مـن هـذا الأب ، و احتجاجه على ألاعيب القدر .. وهكذا أصبح القرصان عدوه - رغم أن معركتهما جعلته يصبح بطلاً وضـابطاً وعاشـقاً مشهوراً - الذي عند القضاء عليه ستقر حبيبته في مثواهـا الأخير ويتطهر هو من كل آثامه ليستكمل حياته و قد تملكته خفة الكائن التي لا تحتمل ..!!

....

وقضى ليلة لم يذق خلالها طعم النوم بعـد أن رفـض مستر " ليفي" أن يمنحه سفينة يطوف بها البحار بحثـاً عـن ذاك القرصان ، وكذاك نبهه أنه سيعد هارباً من الخدمة لأنه ضابط في البحرية الإنجليزية . وهكذا فكر أن يستولي علـى

سفينة مهما كلفه الأمر ، فقد رسم لنفسه طريق العودة إلـى إنجلترا مصمماً على القيام بحركة تمرد على ظهـر سـفينته ويطلق لها العنان في البحار حتى يعثر على هذا القرصان .

وطاف يسأل عن مكان القراصـنة ، والطريـق التـي يسلكها حتى يهتدي إليهم . وأشاروا عليه أن يقصد " الملكة " صاحبة ملهى يسمى باسمها فقد كانت عشيقة لأحد القراصنة وقد رافقته على ظهر البحار لسنوات ثم استقر بها المقام في " بوسطن " بعد مقتله .

وتوجه إلى مقرها وأفضى إليها بسره ، وإذا بها تمطره بوابل من السباب وكأنها ودت أن تأخذ بثأر حبيبهـا منـه ، وعندما لم يجد من ورائها نفعاً يرجى ترك ملهاها وتوجه إلى النزل الذي كان يقيم به .

و تنازعته أفكار مضطربة ، فلم يجد جواباً شافياً عنـد أحد ، ورأى أن الطريق التي تفصله عن القرصـان بعيـدة ومظلمة ، وأقنع نفسه بأن يعود إلى البحرية ويظـل علـى وعده الذي قطعه على نفسه عند قبر حبيبته ويرتـدى ثـوب الأبطال حتى تسند إليه قيادة الأسطول فيطـارد القراصـنة

وينتقم منهم جميعاً .. وطابت نفسه لهذه الصور التي تتراقص في مخيلته حتى غلبه النعاس .

وفجأة استيقظ على طرق باب الحجرة ، فاستفسر عـن الطارق ، سمع صوت امرأة ترجوه أن يأذن لها بالـدخول . وبعد أن أغلق الباب رفعت نقاباً عن وجهها ، وعلى ضـوء المصباح تذكر بأنها الفتاة التي كانت تقف بجوار الملكة عند سؤاله لها .

وأخبرته الفتاة بأن اسمها "إيزابيلا" وأنها شقيقة الملكـة وقد شاركتها طواف البحار و قد أحبـت قرصـاناً يـدعى "فوكس" ثم قضت عامين في ملهى الملكة ، هربت خلالهمـا ثلاث مرات كي تلحق بحبيبها ولكنها لم تستطع فقد أعادتهـا الملكة إلى حجرها . ولقد أدركت قصده أثنـاء حديثـه مـع شقيقتها ، فسعت إليه كي يفتح لها الطريق إلى "فوكس" وفي مقابل ذلك يقوده حبيبها إلى خصمه . وقـد كانـت صـفقة خاسرة لعائلة "ماكسويل" فما زالـت العائلـة تعـانى الفقـر والحرمان بسبب هذه الصفقة .

....

صفارة متقطعة وضوء أحمر أسـفل الشاشـة .. لقـد تعرضت للهجـ ـ ـوم ، تم اختراق جهازي ، سقطت أنظمة الحماية التي طالما يخبرنا المتخصصون أنها الأفضل وأنهـا قادرة على منع الجواسـيس والقراصـنة .. ورغـم ذلـك تعرضت للهجوم ، وأظلمت شاشة الكمبيوتر لثوان معـدودة قبل أن تضيء مجدداً ويظهر الموقـع الخـاص بالحكومـة الأمريكية وقد تناثرت عليه بقع الدم و توالت عليـه صـور ضحايا الحرب وفجأة تتدافع الطائرات عبر الموقع لتصـطدم تارة بما يشبه برجي التجارة أو تقصـف مواقـع مدنيـة أو تتبادل القصف فيما بينها .. وأخيراً تجلجل ضحكة ويظهر " تنين" عجوز ليقول : " نيران صـديقة " . وتظلـم شاشـة الكمبيوتر مرة أخرى ثم تضئ على رسالة تقول:

من شهداء الميدان السماوي

إلى كل شهداء العالم الدامي

نقدم لكم موقع يسخر من الحكومة

الأمريكية والصينية وكل " ية " مستبدة ...

....

كانت صفقة خاسرة لعائلة " ماكسويل " فما زالت العائلة تعانى الفقر والحرمان بسبب هذه الصفقة . و توسلت إليـه باكية بكاء الأطفال ، و قبل أن يفصح عما في نفسـه عـلا صرير الباب الخارجي للنزل و سمعا حواراً بين صاحبته و أشخاص سائلين عن فتاة دلفت داخل باب النزل قبلهم .

وكان جدي مثل من وجد فجأة فوق كتفه جثـة قتيـل ، فأراد أن ينجو من ذنب لم يرتكبه (يذكرني هذا التشبيه بمـا كتبت في روايتي " أبناء الخطأ الرومانسي " حيث وضـعت شخصاً ميتاً فوق شخص حي أو جعلت شخصاً حيـاً ينـزل أسفل شخص ميت وتجثم على روحه المخاوف ويشعر بذنب من يحمل رسالة لا يعرف فحواها أو جدواها) . فقد فزعت "إيزابيلا" وهرعت إلى النافذة قابضة على يده وبعينها حلقات من الرعب ، ولبى نداءها

و تسللا من النافذة وسار معها متلصصاً في ظلام الليل البهيم . وساقه الخوف على حياته من شر أعوان الملكة إلى منزل مستر " ليفي " الذي أقام له فيه حفل العشاء ، وطـرق الباب ففتح لهما خادم عرف مكانة الضيف في قلب المضيف

فلم يسأله عن قصده وقادهما إلى حجرة انتظرا بها لحظـات حتى استيقظ رب الدار الذي جاء ومعالم الاستياء بادية على وجهه ، يجاهد إخفاءها ببشاشة مصطنعة .

و أخبره جدي عن سبب السلوك المعيب الذي وجد نفسه مرغماً على اتباعه . وقص عليه ما دار من حديث بينه وبين الملكة و " إيزابيلا" .

وبعد أن فرغ من حديثه سأله مستر " ليفي" عن المكان الذي يبغي الوصول إليه . وأجابت " إيزابيلا " نيابـة عنـه وأخبرته بأن وجهتهما المكسيك . فقبل مستر " ليفي " أن يقدم له العون في محنته ويأويه بمنزل بحار متقاعد حتى يحـين موقع إقلاع إحدى السفن إلى المكسيك .

ومكث " جدي" و " إيزابيلا " ثلاثة أيـام بمنـزل هـذا البحار وخرجا منه داخل صندوقين ألقي بهما علـى ظهـر سفينة بضائع متجهة إلى المكسيك . وبعد أن خرجت السفينة من مياه "بوسطن " أخرجا من الصندوقين و أعيدت إليهمـا حريتهما . وكانت هذه هي الوسيلة الوحيـدة لنجاتهمـا مـن بطش أعوان الملكة .

وفي المكسيك قادته " إيزابيلا " إلى مزرعـة إيطـالي يدعى " أنطونيو " وأخبرته بأن صاحب المزرعة هو حبيبها "فوكس" ويعمل " أنطونيو " أجيراً عنده . وأقاما لمدة شـهر تقريباً في هذه المزرعة وفى إحدى الليالي استقلا زورقـاً ، وبعد ساعات صعدا منه إلى سفينة القرصان "فوكس" الـذي عانق " إيزابيلا " عناقاً حاراً ، واحتفى بجدي مقـدراً لـه حسن الصنيع.

ولقد كانت صفقة جدي الأكبر " ماكسويل " مع " إيزابيلا " سبباً في تعاسة عائلته التي كتب عليها الحرمان حتى الآن ، فلم يقرأ اسم فرد منهم إلا على قبورهم .

وقد وجدت فجوات كبيرة في مذكرات " جدي" لتباعـد الأحداث ، فما إن صعد على ظهر سفينة القرصان " فوكس " حتى وجدته محمولاً موثوق اليدين . ولقد أفضى إلي عمي " توني" بما حواه هذا الجزء والسر وراء نزعه . فقـد كنـت وحيد أبوي ولم ينجب عمي " توني" أطفالاً ، وخشي أبي أن أموت ضحية ما جاء في هذا الجزء من المذكرات لأني كنت الوارث الوحيد لعائلة " ماكسويل " وأراد أبي أن يحفظ هـذه السلالة ، فقام بنزع هذا الجزء من مذكراته . فقد لاقى ثلاثة

من عائلة " ماكسويل " حتفهم عندما اطلعوا على هذا الجزء ، وأولهم الجد " تومي " النجل الأكبر للجد " ستيوارت" و الثاني " روبرت " النجل الأوحد للجد " تومي " ثم " فرانكس " العم الوحيد لأبي وعمي " توني " .

كان الجد الأكبر قد دخل عالم القرصنة وسلب كنـوزاً من المجوهرات خبأها في جزر و أماكن حدد مواقعها فـي هذا الجزء من مذكراته . وجذب بريق هذه الكنوز "تـومي" و"روبرت" و"فرانكس" فرحلوا فرادى في أوقات متباعدة كي يعودوا بها و انقطعت أخبارهم من تاريخ رحيلهم . وكنـت أحتال على عمي " توني" منذ أن بلغت العاشرة من عمـري كي يقص علي ما ورد بهذا الجزء المفقود من المـذكرات ، ولشد ما كنت أجد لذة في سماعه في كل مرة . وقـد كـان عمى " توني " يغمرني بعطف أكثر مما أجده عنـد أبـي . وعندما أبوح له برغبتي يهمس في أذني قائلاً في كل مرةً :

أوصاني أبوك بكتم هذا السر عنك حتى لا تعلم أن جدك الأكبر كان قرصاناً و لصاً من لصوص البحـار ، فتظـاهر بأنك ترغب في الخروج .

و انفذ الخطة المتفق عليها ، و نسير جنباً إلـى جنـب صامتين حتى نخرج من الحي الذي كنَا نقيم به في "ليفربول " ثم ينعطف في طريق تعود عليها ويتركني خارج مشـرب اعتاد عليه ، و قبل أن يدعني على قارعة الطريق يبتسم في وجهي ابتسامة من يخدع نفسه ويقول :

إنك تعرف صديقي " ستامب " فهـو ينتظرنـي فـي الداخل لأتحدث معه قليلاً و أعود إليك ، وكنت أعرف حقيقة أمره مستطيباً لخداعه فقد كان أبي يخاصمه مـراراً بسـبب إدمانه على شرب الخمر ومجيئه إلى الدار ليلاً محمولاً على أكتاف أصدقائه ، ثم نستيقظ على صياحه و لعناته على الجد الأكبر " ماكسويل " ويظل يستمطر اللعنـات علـى الجـد " ماكسويل" حتى يصبح الصباح ، ثم يخرج إلي بعد لحظـات وقد تجرع كئوساً من الخمر لأسير جواره في انتظار عادتي التي كانت تدفعني إلى الإلحاح عليه مراراً لكي يتلو ما جـاء بهذا الجزء من المذكرات فقد كان يوحي إلي بأنني رجل مثله أؤتمن على السر .

و أظل متلهفاً حتى تمتد يده اليمنى إلي ، فأقدم له يدي اليمنى و أتلو القسم :

" أعاهدك يا عمي "هاري" ألا أبوح بسر هذه القصـة لأحد مدى حياتي ، وسآخذ المواثيق على أولادي بأن يحفظوا هذا السر الذي تضمنته مذاكرات الجد "ماكسويل" ، وأقسـم لك يا عمي بأنني حينما أنجب بناتاً لن يكون من بينهن مـن تحمل اسم " ماري" أو

" إيزابيلا " ، و سأوصي أولادي بـأن يحرمـوا هـذه الأسماء اللعينة ولا يمنحونها لبناتهم". و بعد تـلاوة القسـم يبصق عمى " هارى " على الأرض عدة مرات ثـم ينطلـق لسانه بالسباب و اللعنات على الجد الأكبـر " ماكسـويل " و "ماري" و " إيزابيلا " ، ويقول جملته المعتادة :

" لو لم تدخل هذه الغانية (إيزابيلا) فـي حيـاة الجـد الأكبر (ماكسويل) لدخل جميع أفراد العائلة القصر الملكي".

ويغمز لي بعينه وهو يقول :

إنك تريد أن تعرف أخبار جدك الصعلوك بعد صعوده على ظهر سفينة القرصان "فوكس" . ويصمت لبرهة قبل أن يبصق ثم يستأنف حديثه : لقد أفضى للقرصـان " فـوكس" برغبته في الانتقام من القرصان عدوه ، و يذكر لـه اسـم " فرانشيسكو " الذي أغرقه في المحيط . و يخبره " فـوكس "

بأن هذا القرصان يدعى " المارد " وسفينته يطلق عليها اسمه "فرانشيسكو " و أنه كان شقيقاً له . و يظل الجـد مسـاعداً للقرصان " فوكس " على ظهر سفينته لمدة ثلاثة أعوام ، ثـم يقابل " المارد " في مكان بـ " أمريكا الجنوبية " ويقتلـه . وعندئذ يقهقه عمي " هارى" ضاحكاً كالعجوز و يصيح فـي تهكم قائلاً :

يا لفخر عائلة " ماكسويل " ، لقد قتل جـدهم الأكبـر القرصان الملقب بالمارد ولقد انتقم لحبيبته " ماري " وبذلك سجل اسمه في عالم الأبطال ، ويكمل :

وبعد أن تحقق له حلمه الكبير بالانتقام من المـارد ذاع اسمه في عالم القرصنة ولقب بـ ـ " القرصان الصـامت " لأنه من شدة حزنه على " ماري " كان نادراً ما يتكلم .

وبعد فترة أصبح مالكاً لسفينة أطلق عليها " ماري " ، و ظل على حاله في القرصنة ثمانية أعوام جمع فيها كنوزاً من الأسلاب خبأها في أماكن ما زالت مجهولة بسـبب غبـاوة عقله ، فلم يستطع رسم الطريق إليها بوضوح في مذكراته ، لذلك دفع و هو في قبره ثلاثة من نسله إلى الهلاك في طريق هذه الكنوز .

.. ثم قبض عليه رجال الأسطول و هو يغط في نومـه بإحدى الحانات قرب الدار البيضاء و حملوه إلـى إنجلتـرا حيث حوكم أمام مجلس عسكري ، و وجهت إليه مجموعـة من الاتهامات منها : الهروب مـن الخدمـة العسـكرية – السطو و السلب- وتعريض سلامة الإمبراطورية للخطر في البحار .

و تجلى غباؤه أمام القضاة عندما حاول الدفاع عن نفسه مبرراً هروبه من الخدمة العسكرية بسعيه إلى الانتقـام مـن القرصان الذي كان سبباً في وفاة حبيبتـه . وعنـدما سـمع القضاة هذا القول منه ، ضحكوا سـاخرين مـن منطقـه و أدركوا بأنه غبي جاهل ولذلك قضوا عليه بالسجن المؤبد بدلاً من الإعدام ،و قد أخطأوا في حكمهم ، يا ليتهم أعدموه قبـل أن يتزوج ونخرج من نسله ونكفر عن غباوته الخالدة .

وعند هذا الحد من القول يصمت عمي " توني " لحظـة يستجمع فيها قواه ، ثم يندفع لسانه بالسـباب علـى الجـد " ماكسويل " و قضاته الذين ضلوا طريق العدالة وتركوه حيـاً لم يعدموه ، ثم يهز رأسه ويقول حكمته :

إن ألف مجرم ينشرون فساداً

في مجتمع ،لا يشينونه ،

ولكن غباء قاض واحد

يورث الشقاء للمجتمع

مئات السنين .

....

و ما زال البحث جارياً عن أسامة بن لادن ..

و ما زال البحث جارياً عن صدام حسين ...

جملتان تتكرران كثيراً في كل وسائل الإعـلام وكـأن المسألة قد تحولت إلى لعبة عسكر وحراميـة (مـرة عيـل صغير عمل صباعه كدا مسدس وضرب في صاحبه طـريخ طراخ ، قام صاحبه ساق فيها و عمل له ميت وقالوا أهله دا صاحبه طخه طخ ..)

وأن السلم العالمي لن يتحقق إلا بالقبض علـى هـذين الرجلين ..

فكرة قديمة جداً .. اختزال مشكلة / مشاكل الجماعة في شيء أو شخص ، ثم تصدر الجماعة قراراً بإقصائه – عزله – قتله ..

و ثمة مقولة مدهشة لـ " جان جينيـه " – الفيلسـوف والصعلوك – بشأن التمرد والخروج على قواعد الجماعة و قوانينها وكيف أن ذلك لا يتحقق ويتأكد إلا بـالقبض علـى المتمرد أو مصادرة الفكرة ..

هكذا لا غنى للمجتمعات عن السجون ، وطالما هنـاك سجون و سجانون فلابد من أن تفرز كل جماعـة خـارجين عنها و تدفع بهم إلى السجون .. !!

....

ومن عاداتي عدم إغلاق الكمبيوتر ، وكذلك عدم إغلاق البرامج التي أعمل عليها ، وهكذا أشعر أنني على اتصـال دائم بعوالمي الافتراضية ، لأفر إليها كلما ضاق بي عـالمي المعيش ..

كانت " الرواية / المذكرات " التي أرسـلها لـي ذلـك الصديق الافتراضي ما زالت موجـودة ، وكـذلك بريـدي الإلكتروني ونافذة لأحد المواقع الإباحية ..

و كانت جميع قنوات التلفزيون تذيع وقائع القبض على "صدام حسين " في مخبأه الذي يشبه جحـور القـوارض ، وبدت هيئته مزرية للغاية و مثيرة للشفقة و عشرات الأسئلة.

و انتقلت لمتابعة ما يتم تداوله من أخبار على الإنترنت .. لم أجد رسائل جديدة في بريدي الإلكتروني . أما الرواية .. فقد لاحظت أنها ذات صفحات أقل من الأمس ، لا أعرف تحديداً لكن هذا ما خمنت . و وجدت أمام عيني فصل يحمل هذا العنوان المثير " سجن العظماء " ، و تأكد لدي الشعور بأن هناك رابطاً خفياً بيني و هذه الراوية و أنه ربما يكـون هناك من يتجسس ليس فقط على الكمبيوتر الخاص بي بل و على دماغي ذاته . وشعرت برغبة شديدة في الإطلاع علـى محتويات هذا الفصل ، وكأنها تعويذات ستفتح أمامي العوالم المسحورة ..

....

سجن العظماء

في موكب من الحراس شبيه بمواكب الملوك والعظماء نقل " جدي " إلى سجنه موثوق اليدين ، و لم يحـظ بكـرم ضيافة محافظ السجن الذي قال له في تهكم وهـو يتصـفح أوراقه :

- لا شك أنك أحد العظماء يا " ماكسويل " و قد رفعك ماضيك إلى ذروة المجد فأصبحت عظيماً بولوجك باب هذا السجن . و لعلك سمعت به و بشهرة نزلائه الذين يسـيرون الآن على نهج قويم ، فحذار أن تسلك طريقاً معوجة يكـون فيها هلاكك .

و ضاعف من شقائه إعراض المساجين منـذ اللحظـة التي هبط فيها السجن ، وكان في نظراتهم ما يوحي إليه بأنه المذنب الوحيد وسط جمع من القديسين ، فقـد وجـد نفسـه منبوذاً من جميع نزلاء السجن غارقاً في لجة من الأسباب ، فلم يتحدث إليه فرد أو يستمع إلى حديثه سجين . و حزَّ في نفسه أن يكون مهاناً ذلك الذي كان متوجـاً علـى عـرش البحار.

و حتى الذين شهدوا مجده و نظـروا إليـه و عيـونهم تفيض بالإعجاب و سعوا إلى ساحة عرشه كي يكونوا جنوداً مرتزقة في مملكته ، نأوا عنه . فقد كان بالسجن عـدد مـن القراصنة نفروا جميعاً منه ، وكانت الأحاديث تتداول علـى أفواه المساجين وتصـل إلـى سـمعه دون أن يسـمح لـه بالاشتراك فيها .

و طاف بداخل السجن وحيداً من غير مرشـد ، و رأى قلعة متسعة يوحي بناؤها بأنها شيدت في القرن الثاني عشر . وكانت أشبه بمعتقل ، فلم يكن هنـاك عمـل يكلـف بـه المساجين . و لقد اتخذ محافظ السجن و حراسه جناحاً لهـم يؤدي إلى الباب الخارجي

و يفصله عن المساجين باب السجن .

وبدت ظواهر الأشياء لجدي مبهمة . فقد كان الحـراس أشبه بالخدم للمساجين ، ويجلبون لهم الطعام من الخـارج ، وكان كأطعمة الصدقة لا يشبع بطونهم الجائعة لـذا كـانوا موضع أذى المساجين . و لم يكن يجري بالسجن تفتيش ، و بالليل يظل خمسة حراس بالداخل في أماكن متفرقة يقضـون ليلهم في النوم العميق .

كان السجن يحوي قرابة ألفي سـجين يعيشـون بـين جدرانه بحرية تامة ، أبوابهم تقفل و تفتح حسب رغباتهم فيما عدا باب السجن و صعود السطح .

كانت حياة المساجين تسير وفقاً لأوضاع يعجز العقل عن فهمها ، فقد بدوا لـ ـ "جدي" و كأنهم مقيدون فيما بينهم من روابط المعاملات ؛ في شجارهم و مشاكلهم ؛ بقـوانين صارمة .

و قد خيل لي أن في وسعهم الهرب من السـجن متـى أرادوا ، وصمتهم عن هذا الفرار يخفى سراً . و لقد كـانوا يعيشون في عزلة عن العالم ، فقد توفى سجين بعـد قضـاء جدي بالسجن أربعين يوماً ، فصلى عليه سجين آخر يدعى " جون " وكان يرتدي ثياب السجن ويضع حول رقبته رباطـاً أبيض يميزه عن باقي المساجين . ولم يكن جدي قد رآه قبل هذا إلا مرة واحدة ، وكان محترماً مهاباً من الجميـع . أمـا صلاته على الميت فكانت قصيرة لم تخرج ألفاظها من بـين شفتيه .

و هكذا حار جدي و اختلطت أفكاره ، فتبلد عقله أمـام تلك الظواهر الغريبة . فاعتكف منفرداً بنفسه وكشـف لـه

هوان تلك الأيام عن فلسفة الحياة . فسطر في مذكراته بأنه لا يحمل ضغينة على قضاته الذين شيعوه إلى مقـره الأخيـر بداخل السجن و ما انطوى عليه ذلك من ضيق و عنت .

كذلك لم يلق لوماً على " ماري " و " إيزابيلا " ولا على نفسه التي انتقم منها ، فلو أنه ظل في البحرية لأصبح قاضياً يحكم على المجرمين وليس مجرماً يحاسب على ذنبه .

ويسترسل جدي في مذكراته :

لا فرق بين الحاكم والمحكوم والقاضي والمـتهم فهـذا وذاك بشر ، وقد يكون القاضي مقترفاً لذنب أعظم من جرم هذا الذي يكون تحت رحمة قضائه . وقد يكون الحاكم علـى خطأ يغفر له و يحق الموت على من اقترفه من رعايـاه . و فى هذا ناموس الحياة . فالناس جميعاً يخرجون من بطـون أمهاتهم وكلهم يبغون المجد ويضل منهم من أعد العدة لقطع الطريق ويصل من كان ضالاً في بدايتها وجميعاً يتقابلون في ساحة الموت ، و هكذا نعيش في عالم ملئ بالأسرار .

.....................-

بدأ الملل يتسلل إلي من رتابة هذا التناوب بـين مـا " أزعم " أنه نص وصلني بالبريد الإلكتروني و بين ما " أزعم " أنه تعليقات للراو/ الشخصية الروائية . لكن مهمـا بلغـت درجة الموهبة والحرفية فهناك حـدود تضـطرك للتحايـل والتغافل والتظاهر بتقديم تقنية تعتمد على التناوب و التداخل بين مجموعة من المستويات الروائية السردية ..... !!

وكلما شعرت بالضيق والغضب ، زادت حساسيتي ، و بالتبعية نفوري ، تجاه الكتابة و تتبدى لي مجرد وجه آخر لهلاوسات الجنون عند العجز حتى عن البوح .

(ومرة واحد خط بصباعه فى الهوا
وقال كتابة
قام الناس ساقوا فيها
وقالوا آه وقالوا لا
فبصلهم تانى وقال .. كتابة
قالوا : و بدا الملك يبتسم ببلادة ..
قال كتابة
أو ما قالش
آهي خيابة ..)

....

بدأت أعبث بما يحتويه الكمبيوتر من ملفات لعلني أجـد ما يسهم في تخفيف ما أعانيه من اكتئاب و خواء و هشاشة..

وكلما اطلعت على ملف ، أشعر كما لو كنـت أفـتش بذاكرتي ، وكلما تماديت زاد إحباطي لأنني لا أجـد سـوى القليل من لحظات البهجة و النشوة حتى و أنا داخل ما ألجـأ إليه من عوالم افتراضية .

و فى أحد الملفات وجدت مقالاً كنت قد كتبتـه خـلال أزمة عرفت باسم " أزمة الروايات الثلاثة " ، و شعرت بأن بعض فقراته متوافقة تماماً مع حالتي وكذلك مع مخططـاتي للكتابة الآن :

(إنها لحظة كابوسية لا تخلو من هـزل ، ولا تتوقـف عن التمدد و التضخم لتبتلع داخلها كل شئ .. حتى الـوعي والحواس .

لحظة كابوسية تذكرك برواية " المحاكمة " لـ ـ " كافكا " ، لحظة لا تخضع فقط لمنطق الحلم ، بل تتجـاوزه بفعـل آليات نسخ تكاد أن تكون لا نهائية .. لتجد نفسك أمـام آلاف النسخ .. حالة تتجاوز استخدام الأقنعة فالقنـاع يشـير إلـى

وجود وجه أسفله ، أما النسخ فتوهم بأن الوجـوه حقيقيـة و لأشخاص حقيقيين .

و هكذا تبدت لي الهوجة كما لو كانت نسخة من معركة ، و تبدى لي المتعاركون كما لو كانوا نسخاً من متعـاركين آخرين .. فارتبكت و سألت نفسي : أين موقعي مما يحدث ؟ أين نسختي التي أستطيع المشاركة بها ؟ وهـل أنـا نسـخة بالفعل ؟ وإذا كنت نسخة فعن أي شئ (أصل أو نسخة) قد نسخت ؟

و عندما ترتضي أن تصبح نسخة ، يجـب أن تستسـلم ليطبق عليك قانون "ساكسونيا " – حسب ما جاء في فيلم ل " عادل إمام " – الذي ينص على أنه إذا ارتكب رجـل قـوي جريمة ضد آخر ضعيف ، لا يحاكم الرجـل أقـوى علـى جريمته بل يحاكم ظله و يعني هذا أن الرجل الضعيف بالكاد يماثل ظل الرجل القوي ..!!

و لكي يكتمل هذا الموقف ، يسعى الضعفاء إلى التشـبه بظلال الأقوياء (وليس بهم) وقد يتبادر للذهن أنهم يفعلون ذلك بغرض التقرب أو توهم أنهم ينتمون و لو إلى ظـلال الأقوياء .. لكنني أرى أن الأهم أنهم يهدفون إلى الاحتمـاء

وراء حيلة دفاعية بأنهم ليسوا حقراء تماماً لأنهم يشـبهون ظلال الأقوياء ..!!

يا له من هزل مؤلم ومحزن ومخجل ..!! هزل تـزداد كثافته لحد العتم ، عندما تخايلك ظنون بأن كل مـا تعرفـه مجرد نسخ ، الدولة المدنية مجرد نسخة من فكـرة الدولـة المدنية ، وكذلك مشروع التنوير و الثقافـة و المبـدعون و الإبداع ....كلها مجرد نسخ .

إذن كل ما لديك و ظننته يخصك و يميزك لا يعـدو أن يكون مجرد نسخة .. حتى وهم الانحراف عـن السـائد و محاولة نقده و تجاوزه ليست سوى محاولة انحراف عن نسخ ... فهل هي مجرد نسخة من فكرة الانحراف و التجاوز .. ؟

العتم يزداد كثافة و يكاد أن يتحول إلى أسـوار صـلبة تحيط بي وتطبق علي .. و ثمة ضجيج يشي بأن ثمة انهيار لابد يحدث . انهيار لن يترك وراءه سوى الأطلال والخرائب وناس يرتعدون خوفاً من مواجهة أعداء مجهـولين أو غيـر متوقعين ..!!

....

وظل جدي ثلاثة أشهر ضالاً في فيافي الشك غارقاً في تأملاته ، وبعد نهايتها سمع من يهتف باسمه ، وكان المنادي " جون " القسيس الذي أشار عليه بأن يسير خلفه فتبعه فـي دهليز انتهى بهما إلى حجرة صغيرة بها درج يؤدي إلى باب قبو طرقه " جون " حسب اصطلاح ، فسـمعا صـوتاً مـن الداخل يأذن لهما .

و على ضوء مصباح كان ينير ظلام القبو رأى جـدي شخصين كانا يجلسان في مكان قرب الباب و لم يكـن قـد رآهما قبل الآن . وكان القبو ممتد الأرجاء لا يصل ضـوء المصباح إلى أركانه ، وكان أحدهما شاحب الوجـه هزيـل الجسم يبدو عليه المرض بصورة واضحة ، وكان مضطجعاً في جلسته وقد ارتدى ثياباً تختلف عن لباس المساجين .

أما الآخر فكان جالسـاً ، و علـى نقـيض الشـخص المضطجع يرتدي ثياب السجن ، وكان عملاقاً ضخم الجثـة والرأس ، منظره يثير الفزع في قلوب الجبناء .

و قدمهما " جون " إلى جدي ، مشيراً إلـى الشـخص المريض قائلاً : إنه مستر " إدوارد رايت " .

و أشار إلى العملاق قـائلاً : إنـه " بيتـر سـتون " .
واستطرد قائلاً : أما أنا فاسمي "جون" و أنت معروف لنا و لجميع المساجين .

و بعد أن صافح جدي الثلاثة بما فيهم " جـون " الـذي جاء به ، جلس و ابتدأ الشخص المريض يخاطبه قائلاً :

إننا نعرف مقدار كل شخص يضمه هذا المكـان و قـد بلغتنا أنباء محاكمتك و لم تكن متوسلاً لقضاتك ، أما تـاريخ حياتك فهو مكشوف لنا من يوم نشأتك ، و قصتك مع "ماري " و سفينة القراصنة ، وقد كان لهذا شفاعة أرسلتك إلى هـذا المكان .

واستطرد قائلاً :

نحن نقدر فيك البطولة و قد رأينا أن نصطفيك معنا ، فأحطناك بالرقابة و تركناك في عزلة خلال هذه الفترة مثلك مثل من سبقك ممن أشركناهم معنا . و قد اجتزت امتحانك بنجاح . و قد سلكنا هذا الإجراء مع قلائل كي نختبر مـدى قدرتهم على تحمل رسالتنا . و انتهى الاجتماع عند هذا الحد من قول مستر " إدوارد " دون أن ينطق أحد سواه .

و خرج جدي في أثر " جـون " وعشـرات الأسـئلة تتراقص ألفاظها على شفتيه ، فلم تطب نفسه لطريقة " جون " في التعريف . فقد قدمه لأشخاص محيطين بكـل صـغيرة وكبيرة عنه و هو يجهل أمرهم و طريقة علمهم بأسراره . وكان لحديث مستر " إدوارد " معه ما يدعوه إلى الثرثرة بحثاً عن الحقيقة .

وعند نهاية الدهليز همس " جون " في أذنه :

عهدنا فيك حمل الأمانة ، فاحتفظ لنفسك بسـر مقابلـة مستر " إدوارد " وكذلك اسمه .

و خرجا إلى ساحة السـجن ، و عنـدما وقـع بصـر المساجين على جدي برفقة " جون " أحاطوا به معـانقين ، و أبدى القراصنة اعتذارهم له . و هكذا أصبح جدي عضواً في هذا المجتمع . و لم تمض به أيام قلائل حتى تكشفت أمامـه الحقائق و طرد من ذاكرته علامات الشك و الاستفهام .

و عرف أن هذه القلعـ ـ ـ ـ ـة كانت مقـراً لسـجن أفراد العائلة المالكة و أنصار " شارل الثـاني " . و تخليـداً لذكرى هؤلاء العظماء و وفقاً لتقاليد الشعب الإنجليزي الذي يقدس المحافظة ، ظلت هذه القلعة سجناً و أطلـق عليـه (

سجن العظماء) ، لا يطرق بابه إلا أكـابر المجـرمين و عظماء الرجال أمثال "جدي " ممن كبرت ذنوبهم عن جهالة أو أولئك الذين سبقت منهم حسنى فـي مطلـع حيـاتهم ، و استحق هؤلاء جميعاً الموت على ذنبهم . و لتلك الشفاعات يحكم عليهم بقضاء بقية حياتهم داخل " سجن العظماء" .

و قد اقترنت أغلب أسماء نزلائه بقصـص و أسـاطير فيما عدا بعض أشخاص قلة كانوا مغموري الاسم في عـالم الإجرام ، و قد هبط هؤلاء السجن بنـاء علـى توصـيات ومساع بذلها أشخاص لهم نفوذ . وكانت هذه القلعـة علـى مسيرة يوم واحد من لندن ، و قد اتخذ السهل المحـيط بهـا مقراً لحامية لندن ، فأحاط بها جنود الحامية من كل جانب و أغلقت الطريق المؤدية إليها . وبذلك استحال على المساجين الهرب و لم تكتب النجاة لمن سولت نفسه و أقدم علـى الهرب إلا أشخاص قلائل يعدون على أصابع اليد .

وكان جنود الحامية يقبضون على كل هارب ويعيدونـه إلى السجن كي يراه المساجين مكبلاً بالأغلال ثم يساق إلـى الخارج ولا يعلم أحد من المساجين بعد هذا شيئاً عن أمره .

و تتلى (روايات) عدة عـن مصـيره مصـدرها أذهـان المساجين .

....

إنذار يشير إلى تعرض جهازي للاختراق .... هاها – لأول مرة أرى أمامي عملية اختـراق .. لأول مـرة أتـابع عملية دخول أحد قراصنة الكمبيوتر وعبثه بالملفات الخاصة بي .. ياه إنه يقتطع أجزاء من " النص / الروايـة " الـذي أرسله لي صديقي الافتراضي ، ولا يكتفي بذلك بـل يقحـم أجزاء والمدهش أن لها نفس المواصفات .. فهـي مكتوبـة بخط اليد على ورق قديم و تم نقلها إلى الكمبيوتر بواسـطة الـ ـ " سكانر/ الماسح الضوئي" . ولم أسارع إلـى غلـق جهاز الكمبيوتر حسب الإرشادات ، و تركته كما لـو كنـت أستمتع بهذا الاختراق لذاكراتي المؤقتة. و عنـدما أصـدر الكمبيوتر صفارة تفيد بخروجه و أن الجهاز أصبح آمنـاً ، سارعت للإطلاع على المقاطع التي أقحمها :

العقوبات في مصر القديمة :

عقوبة الإعدام

الإعدام البسيط

التعذيب بالنار

التعذيب بالصلب

التعذيب بالحرق حياً في غرفة الرماد

عقوبة الأشغال الشاقة العامة

العقوبات الاستثنائية :

- قطع الأطراف والحرق تحت الشوك لقاتل أبيه
- حمل الجثة ثلاثة أيام في الطرقات لقاتل أبنائه

العقوبات التعبيرية " لجعل المرء عبرة " :

- قطع يد المزيفين و المزورين
- قطع لسان الجواسيس ومن يكشـفون أسـرار الدولة
- قطع يد المرأة المتهمة بنكاح المحارم
- قطع العضو التناسلى لمغتصب الأعراض
- كسر أداة الجريمة حتى لا تستخدم مجدداً
- المصادرة
- الجلد

- الإغراق
- الكي بالنار
- النفي

العقوبات في عصر " محمد على " :

- ضرب الأعناق بالسيف
- الشنق
- الموت رمياً بالرصاص
- التغريق
- الصلب
- الخوزقة
- قطع الأطراف وإتلاف الأعضاء
- الجلد
- الإرسال إلى جبل فيزاوغلي بالسودان
- الحبس في المصلحة التابع لها المحكوم عليه
- التشغيل في الأبنية الميرية
- الاستخدام في الخدمات الدنيئة
- النفي

إلى السودان في حالة الجرائم الخطيرة

إلى " أبي قير " في حالة الجرائم الإدارية

العقوبات المالية " الغرامة – المصادرة .. "

الإرسال إلى الجهادية / الجيش

السجون في مصر الحديثة :

الليمانات : لتنفيذ عقوبة الأشغال الشاقة على الرجـال الذين لم يبلغوا سن الستين

السجون المركزية

السجون الثانوية

الأوردي : إذا كان محل الشغل على مسافة بعيدة مـن السجن العمومي ، ينشأ للمسجونين سجن مؤقـت يسـمى " أوردي " ولا يجوز تشغيلهم به .

....

لماذا أقدم هذه المقاطع ؟ هل يحثني علـى البحـث و الاستقصاء بهذا الاتجاه ؟ لماذا أنا ؟ أم ترى هو نـوع مـن التحذير أو التهديد أو العبث .. !!

....

ويقول جدي في مذكراته :

قد يجد الإنسان نفسه مثقلاً بوزر لم يسبق له أن ارتـاد طريق معصيته وتلك أعاجيب القدر . و لقد كان هذا حـال مستر " إدوارد " فقد خشي أن يجد جند الحاميـة فـي أثـر قائدهم عن طريق النفق ، وكان الصباح قد أصبح فأمر بنقل الأسرى و إغلاق فتحة النفق بأحجار ثقيلة لم يستطع حملهـا أحد سوى " ستون " .

وكان " ستون " يرى أن توزع الأسلحة على المساجين استعداداً لأي هجوم ، ولكن مستر " إدوارد " قـد اعتـرض على رأيه و وضعت الأسلحة في إحدى الحجرات و تـولى حراستها ثلاثة من الزعماء . و ظهر مستر " إدوارد " أمـام المساجين والحراس فالتف المساجين حوله معانقين و بعضهم كان يبكي فرحاً لهذا اللقاء .

ولما حان وقت الظهر كان سجن العظماء كعبة للأنظار ، فقد وفد إليه عدد من كبار الشخصـيات و علـى رأسـهم الوزير الأول و بعض اللوردات و قائد الجيش ، ونفر مـن أصحاب الصحف و ذوي الأقلام .

و توسل المحافظ حتى بح صوته و هـو ينـادي مـن الخارج راجياً الإفراج عن الأسرى و إعادة الأسلحة . وبين وقت و آخر كان " ستون " يزأر من الداخل قائلاً :

إذا فتح الباب عنوة فسيقتل جميع الأسرى .

ثم صعد الوزير فوق السطح وأخذ يقسم بشرفه بـأن مرسوم العفو عن المساجين سيصدر إذا أخرج الأسـرى و الأسلحة .

و عندئذ رأى مستر " إدوارد " أن يخـرج جـدي و" جون " لمقابلـة الوزيـر الأول ، و يعقدا معـه صفقة بمقتضاها يعفي عن المساجين عفواً عاماً دون قيد على حريتهم

و في مقابل ذلك يفرج عن الأسرى و تعاد الأسـلحة . وكان لهم ناصحاً و محذراً من دهاء الوزير الأول وخبثه .

فصاح " ستون " من أسفل يخاطب الوزير الأول قائلاً :

إننا نرسل وفداً فأمر بفتح الباب كي يخرج الوفـد . و حذار من دخول أحد و إلا فالهلاك للأسرى .

و قابل " جدي" و " جـون " الـوزير الأول بحجـرة المحافظ ، و بدا لهما مكترثاً بخطورة الحادث غير أنه بـذل

محاولة كي يصل إلى هدفه بأسلوب مـاكر ولكنهمـا ظـلا صامدين عند نصح مستر " إدوارد " . ولما أعيتـه الحيـل توجه إلى لندن وعاد بعد الغروب . وكان جدي و " جـون " في انتظاره بمكتب المحافظ فاستلما منـه مرسـوم العفـو ، وعندما قرأه مستر " إدوارد " ، و تبين أنه عفو عن حـادث أسر الضابط و سرقة الأسلحة ، فعادا إلـى الـوزير الأول وسلماه مرسوم العفو و أبلغاه وجهة نظر المساجين و هى : ملازمة جدي و " جون " للوزير حتى يوقع الملـك أمامهمـا على مرسوم العفو . فتجهم وجهه لحظات ثم عاد إلى لنـدن متأبطاً صورة الملك و قد جلس جدي و "جون " إلى جـوار سائق العربة .

وقرب الفجر فتح لهم باب القصر الملكي وكان الملـك في انتظار الوزير الأول . و بدون إجراءات مراسم ، تقـدم جدي و " جون " نحو الملك الذي كان يجلس على مقعد ، ولم ينحنيا أو يركعا أمامه تنفيذاً لمبادئ مستر " إدوارد " .

و قد أثار هذا السلوك شعوره فغمغم :

نعم ، نعم .. بلغني أن هذا الخائن ما زال علـى قيـد الحياة و قد أفسد عقول المساجين . وأخذ جدي و "جـون "

يتفرسان ملامح وجهه وفي الصورة خشية خـداع الـوزير الأول لهما ، فقد شك المساجين في نواياه و أوصيا جدي و " جون " بأن يتحققا من شخصية الملك قبل توقيع المرسوم .

و لما تأكد من شخصه أومأ جدي برأسه للـوزير الأول ليسير في الإجراءات ، وكان الملك ينظر إليهما وفى عينيـه دهشة غضب .

و أخذ الوزير الأول في صياغة مرسوم العفو بخطـه ، فلم يكن بالقصر موظفون في هذه الساعة ، ثم وقـع الملـك على المرسوم و حمله جدي في جيبـه وصـحبهما الـوزير الأول إلى السجن .

و لما اطلع مستر " إدوارد " على مرسوم العفو و قـد جاء به بعد الديباجة : " يفرج عن مساجين (سجن العظماء) و تعاد إليهم حريتهم كاملة حسب ما يسفر عنه الاتفاق بعـد إجراء المحادثات " .

و لهذا أبدى اعتراضه على هذه الصيغة و قـال جملـة أوردها جدي في مذكراته :

خير لكم أن تقعوا في مخالب الوحوش الضـارية فقـد تكتب لكم النجاة ، من أن تصابوا بمخالب السياسة الإنجليزية ففيها هلاك محقق نتيجة ألفاظها التي تحتمل التأويل .

و عاد جدى و " جون " إلى الـوزير الأول بحجـرة المحافظ ، و أبلغاه رأي المساجين في المرسوم و ما جاء به من ألفاظ قد تؤدي بهم إلى الهلاك . و رأى الـوزير الأول أن المساجين قد تمادوا في تطاولهم و إهانة الملك .و دفاعاً عن الشرف الملكي دخل السجن بـدون حـرس و اجتمـع بالمساجين و أخذ يندد برأي من اعترض على الصيغة التـي وردت بالمرسوم ، ثم ذكر لهم بأن عدة لجان قد شكلت بأمر الحكومة من زمن لدراسة مشكلة مساجين (سجن العظماء) و ذلك بغية الانتفاع بمواهبهم بعد خـروجهم مـن السـجن أحراراً بحق العفو .

وكان قد حمل من حجرة المحافظ بعض الصحف التـي نشرت أخبار هذه اللجان ، فـألقى بعضـها فـوق رءوس المساجين – في حركة قصد بها إزالة الشك من نفوسهم – ثم صاح في صوت جهوري :

إن اللجان قد فرغت مـن مهمتهـا و رشـحت جميـع المساجين لشغل و ظائف ذات مراكز مهمة ، و سـتدركون خطأكم فيما لو اطلعتم على اقتراح هذه اللجان . و أرانـي مضطراً للبوح بسر هذه اللجان و أذكر لكم على سبيل المثال اقتراحها بإسناد منصب وزير المالية إلى " جيمس لامبسون " نظراً لماضيه وكفاءته ، فقد كان مديراً لمصـرف معـروف قبل أن يحل بـ " سجن العظماء " ، وأضاف :

و قد جاءت هذه الصيغة بالمرسوم تنفيذاً لرغبات الملك ، فقد رأى أن تستفيد الدولة بخبرة المساجين ولذلك رشـحوا جميعاً لشغل وظائف ، أما المحادثات التي جاء ذكرهـا فـي المرسوم ؛ فقد قصد بها أن يكون لكم رأي فـي المناصـب التي ترى الحكومة إسنادها إليكم.و إني أتيت لكم بسجل بـه أسماءكم ليقترح كل منكم الوظيفة التي يرغب فيها

و ستجرى المحادثات على هذا الأساس .

و إذا كنتم ترغبون في محو هذه العبارة من المرسوم ، فإن الحكومة على استعداد لتحقيـق رغبـتكم و إحضـار مرسوم بالعفو عنكم دون شموله بهذا العطف الملكي ، بشرط

أن تخرجوا بياناً للرأي العام تعلنون فيه بأن الحكومة غيـر مسئولة عنكم بعد العفو . وعليكم أن تكسبوا معاشكم بأنفسكم.

و قد كسب الوزير الأول هذه الجولة و خسرها مستر " إدوارد " ، فقد ارتفعت أصوات أغلب المسـاجين بالموافقـة على إبقاء هذه الجملة في مرسوم العفو ، و أخذ أحد السجناء السجل من يد الوزير الأول الذي خرج بعد لحظات و معـه الأسرى و الأسلحة محمولة على أكتاف الحراس ، و أغلـق باب السجن خلفه . والتف المساجين حول من بيده السـجل معلناً كل منهم رغبته في المنصب الذي تصبو إليه نفسـه . و بعد ثلاثة أيام قضاها المساجين مجتمعين حول السـجل ، حضر أحد موظفي وزارة الخارجية إلى السجن و قـد جـاء ليبلغ المساجين بأن يختاروا من بينهم ثلاثة يكونوا نواباً عنهم في المباحثات التي ستجري بعد غد بحجرة مكتـب محـافظ السجن .

و أجاب مستر " إدوارد " رغبة المساجين ، وقبـل أن يكون رئيساً لوفدهم ، اختار جدي و " جون " عضوين معه .

....

وفجأة انهالت على جهـ ـ ـ ـازي عشـ رات الصـ ور التهكمية ، بعضـ ـ ـ ـها للرئيـ ـس الأمـ ـ ـ ـ ـريكي "بوش " وقد وضعوا وجهه على جسد قرد أو تلاعبوا بوجهه ليصبح لوجه القرد أقرب أو وضعوا وجهه على جسد غانية تتصـ يد رجالاً من أمثل " أسامة بن لادن " ،" الملا عمر " ، "صـ دام حسين " ...

و صور أخرى لـ ـ" صدام حسين " مرتـ دياً ملابـ س رعاة البقر وقد امتطى أحد الصواريخ و أمسك بيده سوطاً .

و صاحب تلك الصور بيانات شجب و إدانة للمخطـ ط الأمريكي الإمبريالي لإعادة استعمار المنطقة العربية تحقيقـ اً للحلم الصهيوني " من النيل إلى الفرات " ، و استنزاف مـ ا تبقى من ثروات نفطية .

و لفت انتباهي ما احتوته بعض البيانات من مصطلحات جديدة على المعجم السياسية الثوري العربي ، مصـ طلحات مثل : الإصلاح – التغيير – الديمقراطية – انتخاب رئيس الجمهورية – إلغاء قوانين الطوارئ .

و بدا الأمر لي تهكمياً ، فكيف نطالـب بتحقيـق كـل الأفكار دون سعي لذلك – دون محاولة لخلق حياة سياسـية متنوعة وحرة ...

كيف نطالب بكل ذلك و ما زلنا فـي انتظـار البطـل المخلص .. فرداً كان أو جماعة أو دولة ، ولكن ماذا بوسـع النسخ أن تفعل عندما يطلب منها (أو تؤمر) أن تتقمص ما يمكن أن نطلق عليه أشخاصاً حقيقيين ..

نحن نعيش في عصر النسائخ التي تم استخدامها لتفريغ كل شئ من محتواه و لتتماه الأشـياء و الأفكـار و تـزول الأطياف الفاصلة بين ما هـو واقـع و افتراضـي ، جـاد وتهكمي ، وطني وعميل ..

وما زال الآخر يقول : **لا فائدة .**

....

وجاءت الليلة التي سبقت إجراء المفاوضـات ، فهجـر المساجين مضاجعهم ، عدا مستر " إدوارد " ، و أقاموا حفل وداع بكى فيه من غلبت عليه عاطفته خشية عاقبة الفراق . وتبارى خطباؤهم وشعراؤهم مسبحين بحمد تلك الأيام التـي

جمعتهم بين جدران (سجن العظماء) وحسبوا أن فلك هـذه السنين قد انتهى بدورة صعدت بهم إلى سماء مقاعد الحكم و مناصب لم يجرؤوا على التفكير بها حتى فـي أحلامهـم . وطال عناقهم و فى ألسنتهم مواثيق و عهود بـألا يقطعـوا رباط الحب مدى الحياة فيتزاورون و تتصاهر ذرياتهم حتى تستمر صلة القربى بينهم أجيالاً و هم في قبورهم .

و بعد الحفل أمسك سجين بالسجل الذي حملـه إلـيهم الوزير الأول ، و أخذ يتلو على الأسماع اسم كـل سـجين بالسجل و الوظيفة التي اختارها . و بعد تلاوة الأسماء ظل الجميع على مراكزهم عدا خمسة مسـاجين طلبوا اسـتبدال وظائفهم بمناصب أخرى و أجيبوا لطلبهم .

و قد ضرب المساجين مثلاً عالياً في إنكار ذاتهـم فلـم يطمع سجين منهم في منصب اختاره زميلـه . و لقـد قنـع أحدهم بمنصب وزير المالية ، وكان ذلك السجين "جيمس" و قد جلس صامتاً متكبراً مما جعل السجين المجاور له يطلـب استبدال رتبة كولونيل في الجيش التي كان قد اختارها مـن قبل بمنصب وزير الداخلية ، وفى ماضيه شفاعة ، فقد كـان جندياً

و أبلى بلاء حسناً في ثلاث معارك ثم هرب من الجيش و ألف عصابة للسطو هددت الأمن سنين طوال في بلدته . و بعد أن تحقق طلبه نظر إلى "جيمس " نظرة طويلة ثم عدل جلسته و اتكأ في كبرياء .

أما جدي فقد طلب أن يكون قبطاناً لسفينة حتى يسـعى وراء كنوزه . واكتفى "جون" بمنصب مشرف على " معهد " ؛ طلابه الأطفال المشردون .

و قد حوى السجل وظائف و رغبات جميع المسـاجين سوى مستر " إدوارد " الذي كان موقناً بخداع الوزير الأول ، كما أنه كان رسولاً ذا رأي حر و محـال تقييـد أمثالـه بالمناصب و الوظائف ، و سار " سـتون " خلفـه ليحمـل الرسالة على كتفه و ساعديه .

و قرب الفجر أحاط المساجين بجـدي و " جـون " و غمروهما بالنصح حتى لا يحيدا عما جاء بالسجل إلا إذا كان الاقتراح الخاص بالحكومة قد جـاء بـدرجات أعلـى فـي مناصبهم . و أصر بعض المساجين علـى وظيفتـه التـي

اختارها دون عدول مهما كان عرض الحكومة من إغـراء بمنصب يسمو على منصبه الذي اختاره .

ثم جاءت اللحظة المرتقبة التي فتح فيها باب السجن و خرج مستر " إدوارد " و جدي

و " جون" ، وقد حمل جدي تحت إبطه سجل وظـائف المساجين . و استقبلهم المحافظ على باب حجرة مكتبه حيث كان يجلس أعضاء وفد الحكومة في الداخل . و بعد أن قـدم أعضاء الوفدين ، انسحب من الحجرة و أغلق بابها خلفه .

وكان وفد الحكومة يتألف من ثلاثة أعضـاء ، يـدعى رئيسهم مستر " سميث " و يشغل منصباً بوزارة الخارجية ، و العضو الثاني يدعى مستر " ريتشارد" و وظيفته مشـرف اجتماعي بمصلحة السجون ، وكان خبيراً بعلم النفس ، أمـا العضو الثالث فكان يدعى " طومسون "

و كان مسجل عقود في لندن و تـم إلحاقـه بـوزارة الـخارجية ليكون عضواً في لجان المفاوضات .

وكانت خيبة الأمل قاسية عندما قهقه مستر " سـميث " بعد اطلاعه على سجل وظائف المساجين . أمـا مسـتر "

إدوارد " فلم تكن مفاجأة له فقد كان موقناً من كذب الـوزير الأول .

و لما تبين لمندوبي المساجين سخرية أعضـاء وفـد الحكومة مما حواه سجلهـم ، قـال مستر " إدوارد " مخاطباً مندوبي الحكومة :

إن هذا السجل و ما حواه من وظائف قد أعد بناء على توصية الوزير الأول الذي قدمه للمساجين ، و لقد طلب منهم إبداء رغباتهم و قطع على نفسه عهداً بتحقيق هذه الرغبات .

و ابتسم مستر " سميث " في خبث و قال :

حتى بفرض صحة صدور هذا القول من الـوزير الأول ، فلا حجية له على الحكومة ، فكـل قـول أو فعـل يصدر منه بصفته الشخصية يسأل عنه وحده ، و ما نسـب إليه مجرد وعود سياسية قصد بها الإفـراج عـن الضـباط الأسرى .

و أنهى كلامه طالباً إغلاق بـاب المناقشـة حيـث أن الحكومة لا تحاسب على جميع أقوال و أفعال الوزير الأول .

و بدأ مستر " طومسون " في تدوين محضر الجلسـة بـذكر

الوقت و التاريخ و مقدمة بها أسـماء أعضـاء الوفـدين و صورة مرسوم العفو .

ثم تحدث مستر " سميث " قائلاً :

إن الحكومة أحالت الموضوع الخاص بالمحادثات إلـى وزارة الخارجية التي رأت أن الأساس الذي ستجرى عليـه المحادثات هو منح المساجين حريتهم خارج إنجلترا .

و صعق المساجين عند سماع القول ، و قـال مسـتر " إدوارد :

لا شك أنكم أخطأتم يا سادة ، فإن مرسوم العفو لم يقيـد بهذا الشرط .

و فى برود علق مستر " سميث " :

لقد جاء مرسوم العفو مقيداً ، و بسـبب هـذا القيـد نتحادث الآن . و طلب من مسـتر " طومسـون " تـلاوة مرسوم العفو بصوت جهوري .

و بعد أن فرغ طومسون من تلاوته ، أكمـل مسـتر " سميث " :

لقد سمعتم الجملة الأخيرة التي جاء بها : (حسب مـا يسفر عنه الاتفاق بعد إجراء المحادثات) ، و إننا بصدد هذه

المحادثات الرسمية ، و وجهة نظر الحكومة أن الأساس الذي تجرى عليه هو منح المساجين حريتهم خارج البلاد . و لو أن المرسوم جاء خالياً من هذه الجملة لأفرج عن المساجين فور توقيعه من جلالة الملك بلا قيد أو شرط .

قال جدي :

معنى هذا أن المرسوم تضمن نفي المساجين خارج إنجلترا .

و لكن مستر " سميث " أبدى استياءه لجهل جدي الذي لم يفهم ما جاء بالمرسوم ؛ شارحاً لهم بأن النفي لا يحتاج إلى محادثات ، إذ أن الحكومة في حاجة إلى خبرة المساجين في الخارج و ستجني ثمار هذه الخبرة ، و حينئذ يكون لهم حق العودة في أي وقت يرغبون .

و هنا طلب مستر " إدوارد " إثبات اعتراضه في محضر الجلسة على ما جاء بوجهة نظر الحكومة و اتهمها بالغدر و الخيانة في محادثاتها و مفاوضاتها مقرراً الانسحاب ، وهم بالوقوف و لحق به جدي و " جون " . و لكن دهاء مستر " سمث " أعادهم جلوساً في مقاعدهم ثانية ، فقد صاح بنغمة مثيرة قائلاً :

لا تتعجلوا الذهاب على هذه الصورة وإنني على يقـين بأن جميع المساجين سيرحبون بخروجهم من الـبلاد عنـدما يدركون أن الملك سيركع أمامهم يوم خروجهم .

و قد هزت هذه الألفاظ مشاعر مستر " إدوارد " الـذي كان يتمنى اليوم الذي يرى فيه الملك راكعاً أمام الشـعب ، فجلس ثانية و من خلفه جدي و " جون" و اتجه بصـر وفـد المساجين إلى شفتي مستر " سميث " و هما تنطقان :

سيخرج المساجين من إنجلترا آباء مبشرين بالدين .

و عندما سمع " جون " هذا فغر فاه و أخذت أصـابعه تعبث بشعيرات لحيته كمن رأى شبحاً مخيفاً في الظلام ثـم أخذ يغمغم و بصوته نبرات شك ، قائلاً :

هذا مستحيل ... و كرر كلمة مستحيل أكثر من عشر مرات ورأسه تهتز في حركات جنونية .

أما جدي فقد ابتسم في بلاهة كمن يعتقد في مزاح مـن يـحادثه . و تـمـالك مسـتر " إدوارد " أعصابه و قال :

كيف يحدث هذا و سواد المساجين الأعظـم لـم يطـأ أعتاب الكنائس من تاريخ مولده عدا اليوم الذي حمـل فيـه

رضيعاً كي يعمد ، كما و أن معظمهم لا يعرف القـراءة و الكتابة .

و لا شك أن هذا الفعل يعتبر خيانة لحرمـات الـدين و البشرية بأجمعها .

و علق مستر " سميث " على قوله :

لقد ُأعد لكل شئ عدته ، فسـيمكث المسـاجين عامـاً يدرسون خلاله تعاليم الدين

و القراءة و الكتابة و أصول التبشير .

فسأله مستر " إدوارد " :

ما وضعهم بالنسبة للكنيسة عندما ترفض الاعتـراف بهم .. و حينئذ بأي حق يدعون باسم الدين مبشرين .

فأجاب مستر " سميث " :

فى هذه الحال سيظلون أبائاً مبشرين تـابعين لـوزارة الخارجية بوصفهم قسساً مدنيين .

واعترت الدهشة مستر " إدوارد " فقال :

و من ثم ستكون رسالتهم فـي التبشـير سياسـية ، أي دعاية للاستعمار باسم الدين .

و لم يصادف هذا القول هوى في نفس مستر " سميث " فأبدى امتعاضه من أسلوب مستر " إدوارد " و صـمت . و عندئذ تحدث العضو الثاني ، مستر " ريتشـارد " مخاطبـاً مستر "إدوارد" : إذا كان الاستعمار فـي نظـرك أنـت و أتباعك جريمة ، فيحق لي أن أقول بأنك لست إنجليزياً ، فهذا الشعب يعيش من أجل مبدأ واحد و هو (استعبد غيرك مـن الشعوب و إلا يأتيك يوم تستعبد فيه) .

و استطرد قائلاً :

إن رسالة المبشـرين ستسـير وفـق تعـاليم وزارة الخارجية ، و ذلك يحث الشعوب على طاعة شعبنا و أبنائه . و طال الجدل و احتدم النقاش بين مستر " إدوارد " و بـين أعضاء وفد الحكومة ، و أنهى مستر " إدوارد " اعتراضـه فى محضر الجلسة قائلاً :

خير للمساجين أن يظلوا بالسجن حتى يدركهم المـوت من أن يكونوا أداة شر

و استعمار باسم الدين .

و عاد الوفد إلى السجن وقد احتشد جميـع المسـاجين خلف الباب في انتظار ساعة الخروج لاستلام مناصبهم . و أصيبوا بذهول عندما رأوا أعضاء وفدهم قد لاذوا بصمت ، وكأنهم قد عادوا بعد تشييع جثمان عزيز عليهم إلى مقـره الأخير . و لم يكن بيد أحدهم سجل الوظائف ، فقد تركـوه على مائدة المحادثات بحجرة المحافظ ، فلم يعد مـن وراء حمله سوء العناء و قد كفاهم ما أصابهم من سخرية بسببه .

و التف المساجين حول أعضاء الوفد سائلين ، فاعتـذر مستر " إدوارد " عن الإجابة لسوء صـحته و توجـه إلـى الفراش و قد بدا على وجهه حزن عميق . أما " جـون " و جدي فقد أحاط بهما المساجين من كل جانب فلـم يسـتطيعا فكاكاً ، فأعلن " جون " على سمعهم ما تم في الاجتماع و قرأ ما جاء بمحضر الجلسة . فارتفعت الأصوات من كل مكان صارخة في دهشة :

آباء .. مبشرون .. مبشرون .. و تعالـت الضـحكات فترة طويلة ثم تفرق المساجين وكأنهم غرقـى فـي بحـر متلاطمة أمواجه وقد ضل سبل النجاة .

وي قول جدي في مذكراته :

بعد انحسار موجة الفزع التي أثارها هذا النبأ في قلوب المساجين ، أخذوا يجتمعون في حلقات ، بعضهم يلد القسس في إلقاء الموعظة و منح البركة . و أحاط نفر منهم بـ ـ " جون " طالبين منه أن يعلمهم الصلاة التي يحفظها . و لما لم يستطع التماص منهم لقنها لهم وكانت قصيرة يرددها علـى روح الأموات ، و فى كل مناسبة لم يكن يعـرف صـلاة سواها وهى (اللهم اغفر لنا خطايانا) . و أخذ المسـاجين يرتلونها عدة مرات بنغم مختلف .

و في حلقة أخرى تمـدد سـجين علـى الأرض مثـل الأموات و انطلق بعض المساجين يصلون عليـه بألفـاظ لا يفهمها أحد حتى الذي كان ينطق بها . و وقف سجين يمثـل دور المبشر و أمامه سجين آخر يمثـل دور الـ وثني الـ ذي يستعطف المبشر كي يهديه للدين . فيقول له المبشر و قـد أمسك بأذنه :

عليك أن تتبع رسالة وزارة الخارجية البريطانية فهـي وكيلة عن آلهة السماوات في الأرض حتى ترسل اسمك إلى السماء كي يحجز لك مقعداً في الجنة ، و إذا لم تنفذ تعـاليم وزارة الخارجية البريطانية فسترسل لك عدداً من الشـياطين

يحيلون حياتك جحيماً حتى تهلك على أيديهم و تخلد بعد هذا في النار .

و يقول الوثني مخاطباً المبشر :

ما تعاليم وزارة الخارجية التي أتبعهـا حتـى أضـمن مقعدي في الجنة ؟!

و يجيبه المبشر :

تؤمن بتعاليم وزارة الخارجية البريطانية ، وتظل عبـداً خاضعاً لأوامرها وتجعل ظهرك مطية أما أموالك فهي مباحة لهم يتمتعون بها في الدنيا ولك عوض في عطفهم ورضائهم فهم رسل و وكلاء عن الآلهة .

ثم يبسط المبشر كفيه و يستأنف مخاطبة الوثني قائلاً : امنحني مالك فإنني أحد الرسل الكرام ، و قد أرسـلت إليـك بتفويض من وزارة الخارجية البريطانية .

فيجيب الوثني :

إنني فقير .. لا مال لدي ..

فيهز المبشر رأسه غاضباً و يشيح بوجهـه بعيـداً ثـم يقول:

أغرب عن وجهي فأنت وثنى مأواك النـار . و لـن ينالك شرف الرق و الاسـتعباد علـى يـد أبنـاء الشـعب الإنجليزي.

فيبكي الوثنى ويقول متذللاً :

إننى أستطيع السجود أمام صورة الملك أياماً ثلاثة دون أن أرفع رأسي .. أليس في ذلك شفاعة تدخلني الجنة ..!!

فيقول المبشر :

إن الملك لا يقبل صلاة المفسدين ولا دعـاءهم ، فهـم يطيلون في صلاتهم ويكثرون من دعواتهم خداعاً و نفاقاً كي يحقق أمانيهم .

و يستمر الوثني في بكائه وتوسله ثم يقول للمبشر :

أبتي إني أرجوك .. أن تتخذ ظهري مطية لك .. حتى أحظى بثواب رضاء الرسل . فيقول له المبشر :

إن هذا أضعف الإيمان برسالتنا . ولكـن شـفقة بـك ورحمة منى سأمنـ ـح ظهرك البركة .

ثم ينحني الوثني راكعاً ، فيمتطيـه المبشـر ويسـوقه كالحمار يطوف به داخل ساحة السجن ثم يهبط مـن علـى ظهره و حينئذ يتضرع الوثني أمام المبشر قائلاً :

إني عبد طائع لرسالة وزارة الخارجية ، وبربـك يـا أبتي تخاطبها كي تنقل والدي من النار إلى الجنة في مقعدين مجاورين لمقعدي ، فقد ماتا على الوثنية ولهما عذرهما فقـد كانا يجهلان وكالة السماوات في الأرض .

فيصيح المبشر :

إن هذا الفعل ليس من اختصاص وزارة الخارجيـة ، فعقد وكالتها محصور في رفع أسماء الطائعين كي تحجز لهم مقاعد في الجنة . أما طلبات الانتقال من النار إلى الجنة فهي من اختصاص الملك وحده ، و هذا لا يتـأتى لـك سـوى بالصلاة للملك صباحاً ومساء والركوع أمام أفـراد الشـعب الإنجليزي لدى رؤيتهم وحملهم على ظهرك حتى يتقوس ولا تستطيع الوقوف على قدميك كالبشر فتسير على أربـع كمـا تسير الدواب .

ويتساءل الوثني :

أليس هناك وسيلة أخرى ألجأ إليها لأدخـل و والـداي الجنة ؟

فيقول المبشر :

نعم .. نعم .. هناك وسيلة و هى أن تبذل دمـك فـداء للتاج البريطاني فتحارب بأمره حتى يمتد نفوذ استعماره على بقعة أخرى خلاف بقعتك و بهذا ترضى عنـك الملائكـة و الرب أجمعين وتحقق جميع رغباتك في الآخرة .

و أصبحت ساحة السجن مسرحاً يمثـل علـى خشـبته فصولاً مختلفة في آن واحد ، وبدا المساجين كأنهم سكارى و ما هم بسكارى و لكن الدهشة أذهلت عقولهم .

و لقد ختمت هذه الصورة بصورة مفجعة ، لـم يكـن يتوقعها أحد . ومن هولها أخرس الجميع ودان على السـجن سكون مخيف .

فقـد كـان سجينـان ينتسبـان لقريـة واحـدة ، يـــدعى أحدهـما " هايد " و الآخـــر " جيكل " . وكانا متهمين في حادث قتل و حكم القضاء عليهما بالمؤبد مـدى حياتهما ، فتوسط أحد اللوردات لهما وهبطا بـــ " سـجن العظماء" و ظلا متلازمين حتى جاء يوم المحادثات و سرى الهرج بين المساجين و جلس " هايد " ممـثلاً دور القسـيس الذي يسمع اعتراف مذنب أمامه ، و جلس " جيكل " يعترف بذنبه و قد غمرته نشوة الموقف ، و خيل إليه أنه أمام قسيس

حقيقي فأخذ يعدد خطاياه و دعا له " هايد " دعوة كفّرت عن جميع ذنوبه ، فقد أمسك حجراً و انهال على رأسـه حتـى فارق الحياة .

و برر " هايد " فعلته مدعياً بأن " جيكل " قد اعترف له بأنه كان على صلة بامرأة أحبها هو قبل دخول السجن ، و ما زال يغار عليها . و سلم " هايد " للحراس فقادوه ليحاكم في لندن .

و بعد هذا الحادث عاد المساجين إلى حالتهم الأولى قبل المحادثات وتركوا الدين و الموعظة و وزارة الخارجية .

أما مستر " إدوارد " فكتب مقالاً اتهـم فيـه الحكومة بالكذب و تضليل الرأي العام

و تعديها على حرمات الدين و الكنيسة . و ساق فـي المقال ما جاء بحادث " هايد " و"جيكل" و أرفق به صـورة محضر جلسة المحادثات .

و بعد نشر المقال تم التحقيق مع الحـراس ، و انتهـى التحقيق بنقلهم جميعاً

و استبدالهم بحراس جدد . وكادت الحملـة الصـحفية التي تلت نشر هذا المقال أن تطيح بالحكومـة و خاصـة أن

الكنيسة أصدرت بياناً أبدت فيه استياءها من سـوء سياسـة الحكومة و امتهانها للدين بهـذا الأسـلوب و رغبتهـا فـي استعمار الشعوب على حساب الدين .

و ختمت الكنيسة بيانها بأنها بريئة مما تفعله الحكومـة من أفعال مشينة و تؤكد عدم اعترافها بالمساجين تابعين لها كمبشرين ، و أن الملابس السوداء التي تمنحها الحكومة لهم هي شعار للاستعمار .

و أسقط في يد الحكومة فقد وجدت نفسها فـي مـأزق حرج أمام الرأي العام .

فاستعملت الحكومة إحدى ألاعيبها السياسية و أرسـلت إلى السجن رسولاً يحمل رسالة للمساجين مضـمونها أنهـا تبدي أسفها بعدم الاعتراف بـ ـ ـ " مستر إدوارد " كمندوب عن المساجين في لجان المحادثات ، بعدما تبـ ـ ـ ـين لهـا أنه لا يوجد سجين فـ ـ ـي (سجن العظـ ـ ـماء) ، و أن من يدعى " إدوارد رايت " كان سجيناً و قد توفي منذ سنوات طويلة وله قبر في لندن غير مجهول . و بما أن الشـخص الذي أنابه المساجين عنهم في لجـان المحادثـات مجهـول الشخصية لانتحاله اسم شخص توفى ، لـذلك فالحكومـة لا

تقبله مفاوضاً باسم المساجين في لجان المحادثات التي ستنعقد بعد ثلاثة أيام بمكتب محافظ السجن و فى هذه الحالة علـى المساجين أن يختاروا شخصاً آخر .

و أحدثت هذه الرسالة أثراً سيئاً في نفـوس المسـاجين الذين لم يروا مناصاً من الانسحاب من تلك المحادثـات . و لكن مستر " إدوارد " رأى بأن يستمر المساجين حتى نهايـة الطريق ليدركوا الخطوة التالية للحكومة بعد هزيمتهـا أمـام الرأي العام .

و رشح " ستون " ليحل محله في لجنة المحادثات فقـد يكون في ساعديه ما يذلل صعابها .

....

رسالة من صديق ترشح لي متابعـة المواقـع الدوليـة لحقوق الإنسان لأنها تفضح وحشـية الأنظمـة العربيـة و الغربية بحد سواء .

و وجدت عشرات التقارير حـول حقـوق الأقليـات و حقوق المرأة و تمكينها واضطهاد حملة الأقلام من كتّـاب و صحفيين و تعذيب سجناء الرأي ... و كـل هـذه التقـارير مدعمة بالصور التي يشيب لهولها الولدان .. !!

و قادني البحث إلى موقع وزارة الخارجية الأمريكيـة حيث وجدت ملفات تحمـل هـذا العنـوان " سـيناريوهات المستقبل " و يضم دراسات حول مستقبل دول و شعوب و تكتلات وعلاقات دولية . و وجدت ملفاً لـ ـ ـ ـ " سيناريو الحرب على العراق " و آخر يخص إيران – سوريا – السعودية – مصر .. لكن ما لفت انتباهي كان ملفاً بعنوان : " أوراق الديمقراطية " ، وكان مترجماً إلى اللغة العربيـة بلهجة لبنانية ، و يطـرح الديمقراطيـة بوصـفها مخطط ـاً استعمارياً جديداً لإعادة تشكيل منطقـة الشـرق الأوسـط ، اعتماداً على تعطش الشعوب العربية إلـى مجـرد تـداول الحديث عن الديمقراطية – الإصلاح – التغييـر- اختيـار الحاكم بين أكثر من مرشح .

و بعد قراءتي لهذا الملف ، استقر بأعماقي خوف عظيم فلقد تكشفت أمامي تفرعات مفزعة لمخطط أمريكـا لنشـر الديمقراطية ، و تجلت بدايتها من الإصرار على طرح النظام الفيدرالي بديلاً حتمياً لمركزية الحكم في البلاد العربية . و لا يخفى على أحد ما سيصحب ذلك من تشجيع للأقليات العرقية و الدينية للمطالبة بحق تقرير المصير الذي غالبـاً سـيمهد

الطريق إلى الانفصال .. وهكذا يتم تفتيت البلاد العربية إلى " تجمعات / فيدراليات " يسهل إقناعها بالمشروع الأكبـر و هو " الشرق الأوسط الكبير " .

سيناريو مخيف لكنه منطقي ..!!

....

أنباء متتالية عن تظاهرات كردية في شمال العـراق مطالبة بحق تقرير المصير ..

أنباء أخرى عن تحركات للشيعة في الجنوب ملوحـة بما يتمتع به الشيعة من قوى حربية وروحية ...

أتباع طائفة المسلمين السنة يشعلون وسـط العـراق بالمقاومة الشرسة و معارضة مطالب الأكراد و الشيعة .

" جون جارانج " زعيم المتمردين بجنـوب السـودان يجلس إلى مائدة المفاوضات مع الحكومة السودانية للاتفـاق على صياغة فيدرالية للحكم في السودان .

تمرد في منطقة دارفور ..

مشاحنات بين المسيحيين و المسلمين تمتد من جنوب مصر إلى الدلتا ثم القاهرة ،

و يتبادل الطرفان اتهامات بإغواء الإناث للتخلي عـن عقيدتهن . ومظاهرات مسيحية تنطلق من داخل كاتدرائيـة العباسية و بقية كنائس مصر المحروسة ..!!

مظاهرات تطالب رئيس الجمهورية بالتنحي أو عـدم التجديد لفترة رئاسية جديدة .

مظاهرات ضد توريث السلطة في مصر .

" كفاية " شعار مرفوع في وجه الحكومة المصـرية و رئيسها .

....

وللمرة الثانية وقف محافظ السجن على بـاب حجـرة مكتبه ليقدم عضو لجنة المباحثات الذي حل محـل مسـتر " إدوارد " . ولما رأى " ستون " في المقدمة وخلفـــــه " جدي "

و " جون " توقع حدوث شر و تراقصت علـى شـفتيه ابتسامة فزع مضطربة ، ولشدة جزعه أخطـأ ونسـى أن " ستون " سجيناً ، فقدمه ولسانه يتعثر في النطق قائلاً :

إنه مستر " بيتر ستون " .

و بدأ مستر " سميث " يملي على الكاتب مقدمةً طويلـةً موجزها أن الحكومة قد تبين لها بعد الرجوع إلـى ملفـات المساجين استحالة هدايتهم للدين ، و تخشى فشلهم فـي أداء الرسالة المقدسة و هى التي تحافظ على الـدين و تقاليـده و تجند نفسها لنشره . و لهذه النتائج التي تتوجس منها خشية قد عدلت عن رأيها الذي أبدته بمحضر الجلسة السـابق فيمـا يتعلق بجعل المساجين أبائاً مبشرين مع تمسكها بالمبدأ الـذي يتخذ أساساً لإجراء المحادثات و هو تمتع المساجين بكامـل حريتهم خارج إنجلترا ، و ذلك وفقاً للاقتراح الـذي تبديـه الحكومة اليوم . و قد أغفل مستر " سميث " في هذه المقدمة ذكر أي إشارة لبيان الكنيسة أو الرأي العام .

ثم نهض مستر " ريتشارد " العضو الثاني و اتجه نحـو دولاب جوار الحائط وكان بداخلـه سـجلات المسـاجين ، فأخرج من بينها سجل " ستون " و بعد أن تصفحه عاد إلـى المائدة

و همس في أذن مستر " سميث " ، ثم غـادر الاثنـان قاعة الاجتماع إلى الخارج و ملف "سـتون" بيـد مسـتر " ريتشارد " .

و بعد لحظات عادا ثانية إلى مقعديهما . ثم نشر مستر " ريتشارد " خرقة كانت مطوية أمامه منذ بداية الاجتمـاع و أشار إلى مندوبي المساجين بأن يتطلعوا إلى الرسـم الـذي حيك على الخرقة ، وكان صورة لامرأة بجناحين على هيئة ملاك .

و قال مستر " سميث " :

إن هذا الذي ترونه أمامكم هو (علم الديمقراطية) ، و تحته سيبحر المساجين في سفن تعدها الحكومة لهـ ـ ـم ، و ذلك بعد إعدادهم بالسلاح و المؤن التي تكفيهم لمدة عام .

واستطرد قائلاً :

و رسالتهم نشر (مبادئ الديمقراطية) في ربوع البلاد الجاهلة التي مازال أهلها متأخرين . و قبل أن يكمل حديثه قدم لـ ـ "ستون " رشوة قيدته في مقعده بدون حـراك فقـد قال:

سنعد من المساجين جيشاً له قائد عام هو " ستون " ، و سيمنح رتبة جنرال في جيش جلالة الملك بعد احـتلال هـذا الجيش و استعماره لإحدى المناطق .

أما جدي فكان كالنائم الذي استيقظ و فى سمعه نبأ سار ، فقد كان يعشق البحر واطمأن إلى كنوزه المخبأة و رآهـا بين يديه و هو يجلس على مائـدة المحادثـات و بجـواره " ستون " مغمضاً عينيه على حلة الجنرال .

وكان وفد المساجين على جهل تام بمعنى الديمقراطية ، ولم يسمع أحد منهم هذا اللفظ من قبل . فكلمة (الديمقراطية) لم تكن متداولة في هذا العصر سوى في محيط الساسـة و أصحاب الثقافة الرفيعة .

و قد كانت هناك جماعة من أفراد الشعب يطلقون على أنفسهم الديمقراطيين . ولكن المساجين لم يكونوا يعلموا من أمرهم شيئاً . لذلك سأل " جون " عن معنـى الديمقراطيـة التي يرمز لها هذا الشعار .

و أفاض مستر " سميث " في شرح الديمقراطية و مدى ما يصيب البشرية من خير باتباع مبادئها .

و قام " جون " بتدوين هذه المناقشة الشفهية و تبين لـي منها أن المفاوض الإنجليزي أستاذ في هذا المضـمار فهـو يتعمق في درس و تحليل الشخصيات التي يتفاوض معها ، وينهج في مفاوضته أسلوباً يتفق مع طبيعة هذه الشخصيات ،

و إنني أرثي لحال الشعوب التـي تتفـاوض مـع الشـعب الإنجليزي ، فمهما بلغ مندوبها مـن البراعـة السياسـية و حصلت هذه الشعوب على معاهدات تضمن استقلالها ، فـإن هذه المعاهدات لن تعدو إلا أن تكـون صـكوك اسـتعمار يمنحها لهم التاج البريطاني بصيغة ترضيهم بهذا الاستعمار .

و ما جاء في مذكرات جدي ، علـى لسـان مسـتر " سميث " ، شرحاً لمعنى الديمقراطية هو آية لفصول مسرحية هزلية .

فقد قال مسـتر " سـميث " لمفاوضـة " سـتون " و " ماكسويل " و " جون " بعد أن أدرك حدود أفكارهم :

إن الديمقراطية ولدت في بلاد الإغريـق قبـل مـيلاد المسيح ، و منحت سر الخلود و حينما اكتملت أنوثتها كانت معبودة الجميع لجمالها و صـفاتها ، و لكـن القياصـرة و الأباطرة أمعنوا في اضطهادها فهربـت داخـل مقاطعـات أوروبا و دولها و كانت تنادي بالمحبة و الإخاء

و السلام ، و لجأت إلى فرنسا في عهد " لويس الرابـع عشر " الذي أراد أن يعتدي على عفافها فاستقلت زورقـاً و عبرت بحر المانش تحت جنح الظلام . و من هذا التـاريخ

تعيش في إنجلترا حبيسة داخـل وزارة الخارجيـة ، و قـد فرضت الحكومة حراسة مشددة عليها خوفاً من الاعتداء على حياتها .

و توجد في آسيا و أفريقيا شعوب تخـر سـاجدةً عنـد سماع اسمها ، و قد جند أهل هذه الشعوب أنفسهم لخـدمتها فهم يعبدونها و يرسلون لها المؤن والهدايا وبذلك أصـبحت مصدر رزق الشعب البريطاني . و الصورة التي على علـم صورتها .

و قد أجاد " سميث " الإلقـاء ، فتـأثر أعضـاء وفـد المساجين بقصة الديمقراطية وما أصابها من اضطهاد .

وكان جدي خبيراً بأعلام الدول التي ترفع على السـفن فقال :

لم أرى هذا العلم على أي سفينة خـلال مـدة طـوافي بالبحار . فلم لا نبحر تحت العلم الإنجليزي حتى لا نتعرض لهجـ ـوم السفن المعـ ـ ـادية للديمقراطيـ ـة ؟ و أخفـى مستر

" سميث" الحقيقة عن جدي وزميليه ، فقد بحـث هـذا الأمر في وزراة الخارجية و انتهـى البحـث بعـدم مـنح

المساجين العلم الإنجليزي حتى لا تتعرض الحكومة لنتـائج طيشـ ـ ـ ـهم مع الدول الأخرى .

و أجاب مستر " سميث " :

إنكم أشجع أبطال عرفتهم إنجلترا حتى الآن ويكفى أن السجن الذي يضمكم يسمى

بـ ـ (سجن العظماء) ولا يوجد من يخاطر بالإبحار تحت هذا العلم إلا أنتم ، وحينما تنجحون فـي أداء مهمـتكم سيكون فخراً للإنجليز والديمقراطية وضربة قاضية للأعداء.

و تطلع " جون " إلى صورة الديمقراطية التي كانـت على العلم وسأل قائلاً :

هل مازالت تتمتع بجمالها ؟ و لماذا لم تأت طائرة في الجو من فرنسا ما دام لها جناحان بدل أن تستقل زورقاً ؟ !

وتصنع مستر " سميث " الحزن وكادت عيناه تـدمعان وقال في صوت متهدج :

كانت تطير في العهود الماضـية و لكـن " يوليـوس قيصر " أحد أباطرة الرومان الذي كان عدواً لها ، سمع بأنها طارت إلى إنجلترا وكان هذا قبل الميلاد ، فجاء بجيشه خلفها

وقذفها برمح فكسر جناحاً لها ، و من هـذا التـاريخ ظلـت مهيضة الجناح .

و لقد هز هذا القول شعور " ستون " ، فبدا الحزن على وجهه و سأل مستر " سميث " :

-وهل الديمقراطية مريضة الآن أم تتمتع بصحة جيدة ؟

وقبل أن يجيب مستر " سميث " وضع يده على جبينـه متظاهراً بأنه يرى مصاباً أمامه

و أطرق ساهم الطرف يغالب حزناً عميقاً ، ثم قال فـي صوت أثقلت ألفاظه فداحة المصاب :

إن الديمقراطية تعاني مرضاً عضالاً ، ولو أنها قضت نحبها ، سيعاني شعب إنجلترا بأكمله الجوع بعد وفاتها .

و لأول مرة رأى جدي دمع " ستون " الذي انهمر مـن عينيه حسرة على الديمقراطية .

و عندئذ قال مستر " سميث " :

هل نبدأ المحادثات الرسمية ؟

لم يسمع جوابـاً مـنهم ، و اهتـزت رءوس الـثلاث بالموافقـة ، وأخذ يـمـلي علـى مسـتر " طومسون " حديث الطرفين ، وكما أشار إلى " سـتون " و "

جون " و "جدي " ليبدوا رأيهم فيما يـدون علـى لسـانهم بمحضر الجلسة ، كان جوابهم الموافقة بالإيماء وهم يجهلون ما يسطر .

و انتهى الاجتماع ، و بصم " ستون " و وقع " جون " و " جدي" على محضر الجلسة ،

و تصافح أعضاء الوفدين ، و سلم مسـتر " سـميث " لـ ـ " ستون " صورة محضر الجلسة و علم الديمقراطية و هز يده قائلاً :

أنتم و زملاؤكم المساجين أبناء الديمقراطية البررة ، و سأبلغها تحياتكم و سؤالكم عن صحتها فور عودتي لـوزارة الخارجية .

و سأل " ستون " في بلاهة :

و هل الديمقراطية متزوجة ؟ و من زوجها ؟

و أخطأ مستر " سميث " خطأ فاحشاً ، فقد فـاض بـه شعور الانتصار باستحواذه على عقل منـدوبي المسـاجين ، فضل طريق الخداع وذكر الحقيقة :

إنها لم تتزوج مطلقاً في حياتها .

و صاح " ستون " :

ما دمت قد ذكرت لنا بأننا (أبناء الديمقراطية) و هـي لم تتزوج ، فمعنى هذا أننا أبناء خطيئة .

و خانت " ستـ ـ ـ ـ ـون " أعصـابه و حـدث مـا توقـ ـ ـ ـع مسـتر " إدوارد " فكال اللكمـ ـات لمسـتر " سميث " ، وانفرد جدي بمسـتر " ريتشـارد " و " جـون " بمستر " طومسون " وكانت معركة حامية انتصر فيها فريق " ستون " انتصاراً باهراً .

و لكن المحافـ ـ ـ ـ ـ ـظ الذي كان يجلس في الحجرة المجاورة سمع ضجة و استغـ ـ ـ ـاثة مستر " سـميث " و زميليه فاستدعى الحراس و بعض جنود الحامية من الخارج ، و قد انتقم هؤلاء من فريق " ستون " شـر انتقـام ، ثـم حملوهم إلى داخل السجن و قذفوا بهم و من ورائهم محضر الجلسة و علم الديمقراطية ، ملطخين بالدماء ، و ُأغلق بـاب السجن .

و هال المساجين رؤية أعضاء وفدهم يقذف بأجسادهم و الدماء تسيل بغزارة ،

و استفسروا منهم عما ألم بهم . و فى حشرجة أخبرهم " ستون " بأن مستر " سميث " ذكر لهم بأن المساجين أبنـاء امرأة زانية تدعى (الديمقراطية) .

....

إشارة بوصول رسالة إلى بريدي الإلكتروني سـارعت إلى فتحها ، و إذا بها تحتوي على هذه الجملة :

Delivery failure
Recipient account is not found.

لم يتم توصيل الرسالة ، لعدم العثور علـى عنـوان المرسل إليه .

....

إنذار بتعرض الجهاز للاختراق ، و إذا بالنص يختفـي تماماً كأنه لم يكن موجوداً.. وعندئذ قررت أن أعيد كتابتـه تحت عنوان " رحلة أبناء الديمقراطية " .